فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا وتداعياتها علي الدين والأخلاق

Spinoza's philosophy of pantheism and its implications for religion and ethics.

إعداد

د/ الشحات عبد المعطي عبد السلام عقل

قسم العقيدة والفلسفة كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنين بدسوق

جامعة الازهر جمهورية مصر العربية

فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا وتداعياتها علي الدين والأخلاق.

الشحات عبد المعطي عبد السلام عقل

قسم العقيدة والفلسفة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق- جامعة الازهر جمهورية مصر العربية

البريد الإلكتروني : alshahatabdelmuty.2230@azhar.edu.eg

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى عدة أهداف منها بيان معنى وحدة الوجود في اللغة والاصطلاح ، وكذلك معناها في المعاجم الفلسفية ، كما يهدف إلى مفهوم الوحدة عند باروخ سبينوزا ، كذلك من أهداف هذا البحث بيان الجذور الفكرية لفلسفة وحدة الوجود ، ويهدف البحث أيضا إلي بيان ما إذا كان سبينوزا مبتدعا لفلسفة الوحدة أم أنه كان مسبوقا إليها متأثرا في دراستها بمن سبقه ، وقد اعتمدت في هذا البحث علي المنهج التحليلي الذي يقوم علي شرح موضوعات البحث بشكل متعمق ، أما عن التوصيات التي توصل إليها الباحث فأهمها أن يقوم الأزهر الشريف بعقد لجنة علمية من الأساتذة المتخصصين في الدراسات الفكرية والفلسفية علي أن يكون عمل هذه اللجنة محصورا علي دراسة الفلسفات الغربية دراسة نقدية بهدف بيان ما فيها من نظريات مخالفة للدين الإسلامي ومناقضة لعقائدة ، وإبطالها بالأدلة السمعية والعقلية حتي لا يقع أحد في براثن هذه الفلسفات ، أو يتأثر بما فيها من نظريات وثنية.

الكلمات المفتاحية : وحدة الوجود ، سبينوزا ، الجوهر، الامتداد ، الفكر ، باروخ .

Spinoza's philosophy of pantheism and its implications for religion and ethics.

Al-Shahat Abdel Muti Abdel Salam Akl
Department of Doctrine and Philosophy, College of Islamic and Arab Studies for Boys, Dessouk
Al-Azhar University, Arab Republic of Egypt
Email: alshahatabdelmuty.2230@azhar.edu.eg

Abstract :

This research aims to achieve several goals, including clarifying the meaning of pantheism in language and terminology, as well as its meaning in philosophical dictionaries. It also aims at the concept of unity according to Baruch Spinoza. One of the goals of this research is also to explain the intellectual roots of the philosophy of pantheism. The research also aims to clarify whether Was Spinoza the innovator of the philosophy of unity, or was he a predecessor to it, influenced in his study by those who came before him? In this research, I relied on the analytical approach, which is based on explaining the research topics in depth. As for the recommendations that the researcher reached, the most important of them is that Al-Azhar Al-Sharif convene a scientific committee of specialized professors. In intellectual and philosophical studies, the work of this committee should be limited to studying Western philosophies critically with the aim of clarifying the theories in them that are contrary to the Islamic religion and contrary to belief, and invalidating them with auditory and rational evidence so that no one falls into the clutches of these philosophies, or is affected by the pagan theories they contain.

Keywords: Pantheism, Spinoza, Essence, Extension, Thought, Baruch.

مقدمة :

الحمد لله حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم المرسلين ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد ، ، ،

إن فلسفة وحدة الوجود فلسفة قديمة ترجع أصولها الفكرية إلي الديانات الشرقية القديمة ، كديانات الهند التي تري أن خلاص الإنسان مرهون باتحاده بالمطلق ، وما زالت فلسفة وحدة الوجود تمثل أساسا عقديا للهندوسية حتي اليوم، كذلك تمتد جذور فلسفة الوحدة إلي ديانات الصين القديمة كديانة الطاوية ، ثم جاءت الأفلاطونية المحدثة فنادت بوحدة الوجود، ونادي بها برونو من فلاسفة عصر النهضة ، إلي أن جاء سبينوزا في العصر الحديث فنادي بوحدة الوجود متأثرا بمن سبقه إلي تبني هذه الفلسفة، فوحدة الوجود مذهب فلسفي مداره علي إلغاء الثنائية في العالم ، فالوجود واحد لا تعدد فيه ولا تكثر وهو وجود الله تعالي، بينما الكائنات المادية إعلان عن وجود الله تعالي وليس لها وجود قائم بذاته، ومن أسباب اختياري لهذا الوضوع :

_أن فلسفة وحدة الوجود من النظريات التي لا زالت حاضرة إلي اليوم في بعض الأديان الشرقية القديمة والتي تمثل أساسا فكريا وعقديا لدي هذه الديانات.

_أن فلسفة وحدة الوجود من الفلسفات التي ذاع سيطها وكثر روادها، رغم تداعياتها الخطيرة علي الدين والأخلاق.

(فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا وتداعياتها علي الدين والأخلاق)

ويتكون هذا البحث من: مقدمة– تمهيد– ثلاثة فصول:

أما المقدمة : فقد ذكرت فيها أهمية البحث وسبب اختياره .

وأما التمهيد : فبينت فيه معنى وحدة الوجود في اللغة والاصطلاح ، وكذلك معناها في المعاجم الفلسفية.

الفصل الأول: الأصول الفكرية لعقيدة وحدة الوجود. وفيه ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: عقيدة وحدة الوجود في الديانة الهندوسية.

المبحث الثاني: عقيدة وحدة الوجود في الديانة الطاوية.

المبحث الثالث: عقيدة وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية.

الفصل الثاني: فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا.

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: نشأة سبينوزا وأهم مؤلفاته.

المبحث الثاني: فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا.

المبحث الثالث: المصادر التي أخذ عنها سبينوزا فلسفة وحدة الوجود.

الفصل الثالث: تداعيات فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا علي الدين والأخلاق:

وفيه مبحثان:

المبحث الأول : تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الدين.

المبحث الثاني: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الأخلاق.

المبحث الثالث: الدليل العقلي علي بطلان القول بوحدة الوجود .

خاتمة.

الدراسات السابقة:

إن موضوع وحدة الوجود من الموضوعات التي نالت حظا كبيرا من البحث والدراسة، ولكن لم أقف علي دراسة تناولت هذا الموضوع تحت عنوان" فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا وتداعياتها علي الدين والأخلاق" ، وفيما يلي بيان ببعض الدراسات السابقة لوحدة الوجود:

١_ وحدة الوجود عند باروخ سبينوزا – دراسة تحليلية نقدية – رسالة دكتوراة للطالب عماري أيوب – بجامعة وهران – جمهورية الجزائر.

٢_ وحدة الوجود لدي اسبينوزا – ميتافيزيقا اللاميتافيزيقا .. الإله والطبيعة والإنسان – للباحث التونسي قاسم شعيب .

٣_ بحث بعنوان:"فلسفة وحدة الوجود بين ابن عربي واسبينوزا: للدكتور : بدران بن الحسن – جامعة باتنة – الجزائر– مجلة حوليات التراث العدد ١٠/٢٠١٠ .

٤_ منح الودود في بيان مذهب وحدة الوجود – للأستاذ سعيد فودة – جامعة روتردام الإسلامية – كلية العلوم الإسلامية .

تمهيد

تعريف وحدة الوجود :

أولا: تعريف وحدة الوجود في اللغة :

وردت مادة الواو والحاء والدال في كتب المعاجم بمعني الانفراد والوحدة والتميز عن الغير ، **ففي مختار الصحاح:**

(الوَحْدَةُ) الانفراد تقول : رأيته (وحده)...، ويقال (وَحَّدَهُ) (وَأَحَّدَهُ) بتشديد الحاء فيهما ، كما يقال : ثَنَّاهُ وثَلَّثَهُ ورجل (وَحَدُ) (وَوَحِدُ) بفتح الحاء وكسرها ، وَ (وَحِيدُ) أي منفرد (وَتَوَحَّدَ) برأيه تَفَرَّدَ به ، وفلان (وَاحِدُ) دهره أي لا نظير له وفلان لا واحد له ، (وَأَوْحَدَهُ) الله جعله واحد زمانه"[(١)]

وجاء في النهاية في غريب الحديث: "(وَحَدَ) في أسماء الله تعالى " الواحد " هو الفرد الذي لم يزل وحده؛ ولم يكن معه آخر، قال الأزهري : الفرق بين الواحد والأحد أن الأحد بُنِيَ لنفي ما يذكر معه من العدد، تقول: ما جاءني أحد، والواحد: اسم بُنِيَ لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس ولا تقول جاءني أحدٌ فالواحد منفرد بالذات في عدم المثل والنظير، والأحد منفرد بالمعني، وقيل: الواحد: هو الذي لا يتجزأ، ولا يُثَنَّي، ولا يقبل الانقسام ولا نظير له ولا مِثل"[(٢)]

---

(١) مختار الصحاح تأليف : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحفني الرازي (المتوفي:٦٦٦هـ) -١/٣٣٤- تحقيق : يوسف الشيخ محمد ، الناشر : المكتبة العصرية -الدار النموذجية - بيروت صيدا والطبعة الخامسة -١٤٢٠هـ/١٩٩٩م .

(٢)النهاية في غريب الحديث والأثر تأليف : مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفي:٦٠٦هـ)- ١٥٩/٥- الناشر: المكتبة العلمية - بيروت ١٣٩٩- ١٩٧٩- تحقيق: طاهر أحمد الزواوي- محمود محمد الطناحي .

كما جاء في مقاييس اللغة : "(وَحَدَ) الْوَاوُ وَالْحَاءُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى الِانْفِرَادِ. مِنْ ذَلِكَ الْوَحْدَةِ. وَهُوَ وَاحِدُ قَبِيلَتِهِ، إِذَا لَمْ يَكُنْ فِيهِمْ مِثْلُهُ، قَالَ:

يَا وَاحِدَ الْعُرْبِ الَّذِي ... مَا فِي الْأَنَامِ لَهُ نَظِيرُ

وَلَقِيتُ الْقَوْمَ مَوْحَدَ مَوْحَدَ. وَلَقِيتُهُ وَحْدَهُ. وَلَا يُضَافُ إِلَّا فِي قَوْلِهِمْ: نَسِيجُ

وَحْدِهِ، وَعُيَيْرُ وَحْدِهِ، وَجُحَيْشُ وَحْدِهِ، وَنَسِيجُ وَحْدِهِ، أَيْ لَا يُنْسَجُ غَيْرُهُ لِنَفَاسَتِهِ، وَهُوَ مَثَلٌ. وَالْوَاحِدُ: الْمُنْفَرِدُ" [(١)] .

نخلص مما سبق إلى أن لفظ وَحْدةٍ يدور معناه حول الانفراد والتميز ونفي الغيرية

ثانيا: تعريف الوجود في اللغة:

وردت كلمة الوجود في المعاجم اللغوية بمعان عدة أهمها الحصول والثبوت، والظفر بالضالة، والتحقق، جاء في المعجم الوسيط:

(وجد) الشَّيْء من عدم وجودا خلاف عدم فَهُوَ مَوْجُود

(أوجد) الله الشَّيْء أنشأه من غير سبق مِثَال وَفُلَانًا أغناه يُقَال الْحَمد لله الَّذِي أوجدني بعد فقر وَفُلَانًا بعد ضعف قوَّاه وعَلى الْأَمر أكرهه وألجأه وَالشَّيْء جعله يجده ويظفر بِهِ ومطلوبه أظفره بِهِ... (الْوُجُود) ضد الْعَدَم وَهُوَ

(١) معجم مقاييس اللغة ، تأليف: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي أبو الحسين (المتوفي:٣٩٥هـ)-٦/٩١- تحقيق : عبد السلام محمد هارون، الناشر : دار الفكر ١٣٩٩-١٩٧٩م

ذهني وخارجي (الوجودية) (بِالْمَعْنَى الْأَعَمّ) فلسفة ترى أَن الْوُجُود سَابق على الْمَاهِيّة[١]

وجاء في معجم اللغة العربية المعاصرة :" وُجِدَ يُوجَد، وُجودًا، والمفعول مَوْجود

• وُجد الكوكبُ من عدم: كان وحصل، خلاف عُدِم "وُجِدت السَّمواتُ من عدم" [٢].

"**وجود [مفرد]:**

١ – مصدر وُجِدَ ووجَدَ.

٢ – كلّ ما هو موجود أو يمكن أن يوجد، كَوْنُ الشَّيء واقعًا وهو نوعان: ذهنيٌّ وخارجيّ، عكسه العدم "ظهرت السيَّارة الجديدة للوجود– غاب عن الوجود: أُغمي عليه– برز إلى الوجود– في حيِّز الوجود" أثبت وجوده" [٣].

كما جاء في المصباح المنير:

"وَالْوُجُودُ خِلَافُ الْعَدَمِ وَأَوْجَدَ اللَّهُ الشَّيْءَ مِنْ الْعَدَمِ فَوُجِدَ فَهُوَ مَوْجُودٌ مِنْ النَّوَادِرِ مِثْلُ أَجَنَّهُ اللَّهُ فَجُنَّ فَهُوَ مَجْنُونٌ" [٤]

---

(١)المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة –١٠١٣/٢– (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة .

(٢)معجم اللغة العربية المعاصرة المؤلف: د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ)–٢٤٠٣/٣– بمساعدة فريق عمل الناشر : عالم الكتب الطبعة: الأولى ، ١٤٢٩ هـ – ٢٠٠٨ م .

(٣)المرجع السابق ٣ / ٢٤٠٣ .

(٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ، المؤلف أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس المتوفى نحو ٧٧٠هـ ، ٢ / ٦٤٨ ، الناشر : المكتبة العلمية ، بيروت .

يتبين مما سبق أن وجود الشئ هو حصوله في الواقع فالوجود يعني الحصول والثبوت وهو ضد العدم .

مفهوم لفظ الوحدة في المعاجم الفلسفية :

كلمة وحدة في المعاجم الفلسفية تعني التفرد وعدم التكثر، ففي المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة :

"وحدة هي ضد الكثرة ، وهما من المعاني الواضحة، وعرفوا الوحدة بكون الشيء بحيث لا ينقسم إلى أمورمتشاركة في الماهية، سواء لم ينقسم أصلا كالوجب والنقطة وتسمي وحدة حقيقية أو انقسم إلى أمور مخالفة في الحقيقة ، كزيد المنقسم إلى أعضائه، وتسمي وحدة إضافية ، وقالوا في الوحدة إنها نفس الوجود، فتكون الوحدة الشخصية هي نفس الوجود الشخصي الثابت لكل موجود معين" (١)

وجاء في المعجم الفلسفي لمراد وهبة:

"وحدة عدم انقسام ، الوحدة ليست تفهم في الموجود معنى زائدا على ذاته خارج النفس في الوجود، مثل ما يفهم من قولنا موجود أبيض، وإنما يفهم منه حالة عدمية وهي عدم الانقسام" (٢)

ويقول جميل صليبا : " الوحدة ضد الكثرة ، لأنها كون الشيء بحيث لا ينقسم ، والكثرة كونه بحيث ينقسم ، تطلق الوحدة على كل ما يطلق عليه

(١) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، المؤلف د/ عبد المنعم الحفني ، ص ٩٣٧، الطبعة الثالثة ، الناشر : مكتبة مدبولي ٦ ميدان طلعت حرب، القاهرة .

(٢) المعجم الفلسفي : مراد وهبة، الناشر: دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة ٢٠٠٧م

الواحد ، لأنها صفة له تقول: وحدة الأنا ، ووحدة الدين ، ووحدة العواطف، ووحدة العالم" [١] .

يتبين مما سبق أن معنى الوحدة في المعاجم الفلسفية لا يختلف عن معناها في اصطلاح اللغويين وهو الانفراد وعدم التكثر.

مفهوم لفظ الوجود في المعاجم الفلسفية :

الوجود مقابل للعدم، وهو بديهي، فلا يحتاج إلى تعريف إلا من حيث إنه مدلول للفظ دون آخر، فيعرف تعريفا لفظيا يفيد فهمه من ذلك اللفظ ، لا تصوره في نفسه مثال ذلك تعريف الوجود بالكون ، أو الثبوت ، أو الشيئية أو بما به ينقسم الشيء إلى فاعل ومنفعل، وإلى حادث وقديم ، أو بما به يصح أن يعلم الشيء ، ويخبر عنه فهذه كلها تعريفات لفظية أخفي من الشيء المعرف ، ولا معنى لتعريف الشيء بما هو أخفي منه . ولعلنا إذا أردنا توضيح معنى الوجود نستطيع أن نميزه عن غيره بما يلي :

١- أن الوجود هو كون الشيء حاصلا في نفسه ، مع أنه لا يكون معلوما لأحد ، فوجوده إذن بذاته مستقل عن كونه معلوما.

٢- أن الوجود هو كون الشيء حاصلا في التجربة ، إما حصولا فعليا فيكون موضوع إدراك حسي أو وجداني ، وإما حصولا تصوريا فيكون موضوع استدلال عقلي.

٣- أن الوجود هو الحقيقة الواقعية الدائمة ، أو الحقيقة التي نعيش فيها ، وهو بهذا المعني مقابل للحقيقة المجردة ، والحقيقة النظرية [٢]

---

(١) المعجم الفلسفي تأليف : الدكتور جميل صليبا -٥٦٧/٢- الناشر: دار الكتاب اللبناني-بيروت لبنان ١٩٨٢م

(٢) انظر المعجم الفلسفي /الدكتور جميل صليبا -٥٥٨/٢- الناشر: دار الكتاب، لبنان ١٩٨٢م

وجاء في المعجم الفلسفي لمجمع اللغة العربية:

وجود تحقق الشيء في الذهن أو في الخارج ومنه الوجود المادي أو في التجربة، والوجود العقلي أو المنطقي يقابل عند المدرسيين الماهية أو الذات باعتبار أن الماهية هي الطبيعة المعقولة للشيء وأن الوجود هو التحقق الفعلي له [(١)].

نستخلص مما سبق أن مفهوم الوجود واحد في المعاجم الفلسفية والمعاجم اللغوية حيث يدور معناه في هذه المعاجم حول الحصول ، والتحقق ، والثبوت ، في مقابلة العدم.

تعريف وحدة الوجود في الاصطلاح :

تعني وحدة الوجود عند القائلين بها أن الله والموجودات شيء واحد ، فالوجود عندهم هو الله وحدة وليس هناك وجود آخر أما المخلوقات فهي عندهم ظل لوجود الله تعالى.

يقول الدكتور جميل صليبا : مذهب وحدة الوجود مذهب الذين يوحدون بين الله والعالم، ويزعمون أن كل شيء هو الله ... ولمذهب وحدة الوجود عدة صور جديدة كوحدة الوجود الإسبينوزية [(٢)] التي تقر أن الله وحده هو الموجود الحق، ووحدة الوجود المثالية التي تقرر أن الله هو الروح الكامن في الأرواح الجزئية ، ووحدة الوجود الطبيعية التي توحد الله والطبيعة ، ولكن هذه الصور المختلفة يمكن أن ترد إلى صورتين أساسيتين :

---

(١) المعجم الفلسفي / مجمع اللغة العربية ، الناشر: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ، القاهرة ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م

(٢) وحدة الوجود الإسبينوزية: مصطلح مفهومه أن الله وحده هو الوجود الحق، والعالم مجموع المظاهر التي تعلن عن ذات الله دون أن يكون لها وجود قائم بذاته[المعجم الفلسفي /مراد وهبة – ٦٨٢ –].

الأولى: هي القول أن الله وحده هو الموجود الحق، وأن العالم مجموع ظواهر وأحوال ليس لها وجود حقيقي دائم، ولا جوهر متميز، والمثال من هذه الصورة مذهب وحدة الوجود الإسبينوزية.

والثانيـة: هـي القول أن العالم وحده هو الموجود الحق، وليس الله سوى مجموع الأشياء الموجودة في العالم، والمثال من هذه الصورة مذهب وحدة الوجود عند (دولباخ)[١]

ويقول الدكتور عبد المنعم حفني: وحدة الوجود مذهب القائلين بأن الله لا يوجد مستقلا عن الأشياء ، أو أنه نفس العالم ، والأشياء مظاهر لحقيقته الكلية، أو مظاهر لذاته ، تصدر عنه بالتجلي، أو تفيض عنه فيوض النور عن الشمس[٢] .

وجـاء فـي المعجـم الفلسـفي لمجمـع اللغـة العربيـة : وحدة الوجود مذهب يقول إن الله والعالم حقيقة واحدة، قد تغلب في هذه الوحدة فكرة الألوهية، ويرد كل شيء إلى الله، فهو الموجود الحق ولا موجود سواه وكل ما عداه أعراض ومظاهر لوجوده أو مجرد تجليات وفيوضات مستمدة منه[٣]

والشاهد من النصوص السابقة أن وحدة الوجود مذهب يعتقد أن الوجود واحد وهو وجود الله تعالى وأن المخلوقات إنما هي انعكاس لوجوده.

(١) انظر : المعجم الفلسفي د/ جميل صليبا ٢ / ٥٦٩، باختصار

(٢)المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة/الدكتور عبد المنعم الحفني –٩٣٨– الطبعة الثالثة –٢٠٠٠ الناشر : مكتبة مدبولي –٦ ميدان طلعت حرب – القاهرة.

(٣)المعجم الفلسفي/مجمع اللغة العربية –٢١٢–

الفصل الأول:

وحدة الوجود في الأديان الوثنية القديمة:

لم تكن فلسفة وحدة الوجود وليدة العصر الحديث أو المعاصر ،ومن ثَمَّ لم يك سبينوزا هو أول من نادي بوحدة الوجود أو دعي إليها ، وإنما سبقه إلي ذلك كثير من المفكرين والفلاسفة علي مر العصور ، فوحدة الوجود من العقائد القديمة التي ترجع بأصولها الفكرية ، وجذورها الفلسفية ، إلي الأديان الوثنية القديمة ، والفلسفة الونانية ، ومن ثم فلم تكن البيئة االأوربية هي البيئة التي ظهرت فيها هذه الفلسفة للمرة الأولى ، وإنما ظهرت وحدة الوجود أولا في البيئة الهندية في الديانة الهندوسية ، ثم ظهرت بعد ذلك في الطاوية الصينية، ثم في الفلسفة اليونانية

ومن ثم فإن هذا الفصل يشتمل على ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: وحدة الوجود في الديانة الهندوسية

المبحث الثاني: وحدة الوجود في الديانة الطاوية

المبحث الثالث: وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية

المبحث الأول

وحدة الوجود في الديانة الهندوسية

الهندوسية– ويطلق عليها أيضا البرهمية– ديانة وثنية، يعتنقها معظم أهل الهند، وهي مجموعة من العقائد والعادات والتقاليد عبر مسيرة طويلة من القرن الخامس عشر قبل الميلاد إلى وقتنا الحاضر، إنها ديانة تضم القيم الروحية والخلقية إلى جانب المبادئ القانونية والتنظيمية متخذة عدة آلهة بحسب الأعمال المتعلقة بها ، فلكل منطقة إله، ولكل عمل أو ظاهرة إله[(١)]

والهندوسية أسلوب في الحياة أكثر مما هي مجموعة من العقائد، والمعتقدات، تاريخها يوضح استيعابها لشتي المعتقدات والفرائض والسنن، وليست لها صيغ محدودة المعالم ، ولذا تشمل من العقائد ما يهبط إلى عبادة الأحجار والأشجار، وما يرتفع إلى التجريدات الفلسفية الدقيقة[(٢)]

ونحن هنا لسنا بصدد الحديث عن الديانة الهندوسية بشكل عام ، ولكن المعول عليه في هذا المبحث هو إثبات أن الهندوسية وهي ديانة وثنية تعد من الديانات التي تعتقد اعتقادا راسخا بوحدة الوجود ، وقد تبين ذلك

---

(١)الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة، /إعداد مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث لصاحبه أبو عيسي محمد بن حسين المصري–٧٦٢/٢– إشراف علمي: حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن أبو الخير، الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع –مصر – درب الأتراك خلف الجامع الأزهر– القاهرة.

(٢)أديان الهند الكبرى الهندوسية، الجينية، البوذية/الدكتور أحمد شلبي–٣٨/٤– الناشر :مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلي بالقاهرة – الطبعة الحادية عشرة مع تعديلات وإضافات قيمة –٢٠٠٠م

واضحا في بعض أسفارها المقدسة، كسفر الأوبانيشاد ، يقول الدكتور على زيعور مبينا أن البرهمن في الهندوسية هو الخالق وهو المخلوق، وهو الواحد والمتعدد في الوقت نفسه:

" البراهمان[البرهمن]: نفوس الكائنات ونفوس جميع الاشياء مماثلة للنفس الشاملة، الكونية وهذه الأخيرة موجودة في كل كائن، وحيث إنها كذلك فالإنسان عينه يكون موجودا في كل كائن، في النبات كما في الإله، تلك هي الدلالة العميقة للعبارة الشهيرة ، القائلة: تات تفام أشي_أي (أنت هو ذاك)

نفس المخلوقات نفس واحدة، إلا أنها ماثلة في كل مخلوق، وهي في الآن عينه وحدة وتعدد، كالقمر الذي يتلألأ على صفحة المياه"[(١)]

يتبين من هذا النص أن الخالق في الهندوسية هو المخلوق، فالخالق الواحد هو نفسه المخلوقات المتعددة ، ومن ثم فالوجود في الهندوسية واحد ليس أكثر.

وفي فلسفة الهند الأخلاقية المسماة" ويدانت" وردت العبارة التالية: هذا الكون كله ليس إلا ظهورا للوجود الحقيقي الأساسي، وأن الشمس والقمر وجميع جهات العالم وجميع أرواح الموجودات أجزاء ومظاهر لذلك الوجود المحيط المطلق، وأن الحياة كلها أشكال لتلك القوة الوحيدة الأصيلة. وأن الجبال والبحار والأنهار تُفَجَّر من ذلك الروح المحيط الذي يستقر في سائر الأشياء[(٢)]

(١)الفلسفة في الهند/الدكتور على زيعور- ١٣٦، ١٣٥-الناشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بروت-لبنان، الطبعة الأولي ١٤١٣هـ-١٩٩٣م

(٢)أديان الهند الكبري/الدكتور أحمد شلبي-٦٦/٤- .

ومن عقائد الهندوس عقيدة تسمى : عقيدة النرفانا وهي اتحاد الروح بالخالق

يقول الدكتور محمد ضياء الأعظمي :" عقيدة النرفافنا : يعني النجاة، وهي حالة الروح التي بقيت صالحة في دورات تناسخية متعاقبة ولم تعد تحتاج إلى تناسخ جديد فيحصل لها النرفانا (النجاة) من الجولان وتتحد الروح بالخالق. يقول كرشنا : من يعرف طبيعة ظهوري وأعمالي التجاوزية لا يولد ثانية عند تركه الجسد في هذا العالم المادي، بل يدخل مقامي السرمدي[١] فإن الهدف الأسمي للحياة عند الهندوس هو التحرر من رق الأهواء والشهوات، فإن الروح إذا خرجت من جسم تنتقل إلى جسم آخر وهكذا تظل متنقلة من جسم إلى جسم حتي يحصل لها "النرفانا "وهو العودة إلى أصلها الذي صدرت عنه، والاتحاد والاتصال به وهو"برهما"وفي تعبير المتصوفين "الفنا"[٢]

(١) فصول في أديان الهند –الهندوسية والبوذية والجينية والسيخية وعلاقتها بالتصوف/تأليف الدكتور محمد ضياء الأعظمي الاستاذ بالجامعة الإسلامية – المدينة المنورة–١٢٥، ١٢٤–نقلا عن–الكيتا:أشلوك٩– الناشر: دار البخاري للنشر والتوزيع –المدينة المنورة –بريدة الطبعة الأولي ١٩١٧هـ–١٩٩٧م

(٢) المرجع السابق–١٢٥–

ويقول الدكتور على زيعور:"

" يستخدم البرهمن كمسكن للكائنات قاطبة ، ويسكن هو في الكائنات كلها ، إن الذي يرى ذاته في جميع الكائنات ويرى جميع الكائنات في ذاته يصبح كلها، إن الذي يرى ذاته في جميع الكائنات ويرى جميع الكائنات في ذاته يصبح بذلك هو والبرهمن الأسمى واحداً .

" للحقيقة ، إن المبدأ الذي تولد منه جميع الكائنات ، والذي تعيش فيه عندما ترى النور ، والذي تدخل فيها عندما تموت ، ينبغي عليك معرفته: ذلك هو البرهمن .

" كالعنكبوت يفرز خيوطه من ذاته ثم يمتصها ، كالنباتات النامية من الأرض ، وكالشعر على الإنسان الحي ، فكذلك ينمو العالم من اللافاني" .

هو مصدر كل شيئ:كالأنهارالتي تنساب صوب المحيط لتندغم فيه، متخلية عن أسمائها وأشكالها، كذلك يفعل العارف ، فهو بتحرره من الاسم والشكل، يغدو نحو الإنسان الإلهي (بوروشا) الذي هو بعد المابعد، أرفع من الأرفع، ويسموفوق المتسامي[١] .

نستخاص من النصوص السابقة أن البرهمن في الهندوسية هو الإله الخالق الذي تصدر عنه الكائنات ويعد مسكنا لها كما يسكن هو في كل كائن، فالبرهمن هو مصدر كل شيء ، وهو في نفس الوقت يوجد في كل شيء ويتشكل بكل شيئ، ومن ثم فالكائنات في الهندوسية وهم وخيال ، والموجود الحقيقي هو برهمن الإله .

(١) انظر كتاب الفلسفة في الهند /للدكتور على زيعور-١٣٦-.

ويقول الدكتور أسعد السحمراني مبينا أن الهندوس لا يؤمنون باليوم الآخر، وأن الهدف عندهم هو الاتحاد بالروح الكلية ، أي الاتحاد بالخالق:

" النفس عندهم – أي عند الهندوس – لها أدوار تمر بها في الأبدان طلبا للتطهر ، لذلك لم يتحدثوا عن عالم آخر وعن مصير ينتظر النفس اللهم إلا مصير الاتحاد بالروح الكلية ... أعمال الإنسان تحدد مصير النفس، فعندما يتم اتباع الفضائل في دورات متعددة ، تنعتق النفس من دورة الحياة في الأبدان ، ويتحقق لها الخلاص بالاتحاد بالروح الكلية ، والروح التي تسمو عندهم إلى مرتبة التقديس والتطهير يسمونها آتما ...النفس من خلال تناسخها في بدن بعد بدن، تستكمل التطهير، وبذلك تتوقف عملية انتقالها بالأبدان ليتحقق الاتحاد المذكور، والسبيل إلى ذلك ملاشاة البدن وإضعافه وإماتة الشهوات والغرائز من خلال رياضات قاسية بدنية ونفسية"[١] ، ويقول الدكتور سعدون السماك :" وهدف الإنسان الهندوسي أن يصل إلى مرحلة الانطلاق أو الخلاص ، والتي تعني انعتاق روحه من الجسد واتحادها بالإله براهما ، ويكون ذلك بالعمل الجيد الصالح الذي يساعد المرء على الانتقال بعد الموت إلى طبقة أعلي من طبقته حتي يصل إلى أعلي الطبقات ، ويستمر بعمله الصالح لتنطلق روحه بعد ذلك إلى الاتحاد مع براهما"[٢]

---

(١) انظر البيان في مقارنة الأديان/الدكتور أسعد السحمراني–١٢٤، ١٢٣–باختصار، الناشر : دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع–بيروت–لبنان–الطبعة الأولي–١٤٢٢هـ–٢٠٠١م .

(٢) موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة / للدكتور سعدون محمود السماك –١/١٠٤، ١٠٣– الناشر : دار المناهج للنشر والتوزيع– عمان الأردن – شارع الملك حسين ، الطبعة الأولي ١٤٢٢هـ –٢٠٠٢م .

ويقول الدكتور علي زيعور مبينا عقيدة الوحدة في المذهب الصوفي الهندي :"الإنسان الحقيقي ، البرهمي الحقيقي ، في هذا المذهب الصوفي ، هو الذي يعمل للاتحاد بالذات الشاملة ، وليس هو من يبني أو يجمع المال... النشاطات الاقتصادية والاجتماعية مرفوضة ؛ المثل الأعلى هنا انعزالي، عازل ، لا اجتماعي ولا مجتمعي : إنه في بلوغ مرتبة القديس المتسول الساكن في الغابة (يراجع : المراحل التى تخضع لها الحياة البرهمية ، المرحلة الأخيرة أي العليا) .

وسائط بلوغ الاتحاد: غزيرة هي المعلومات والإرشادات المفصلة التي تقدمها الأوبانيشادات للسالك، أي لبلوغ الذوبان في اللانهائي أو الاتحاد به ،...، فالأوبانيشاد ليست أسفارا في الأخلاق، إنها تصوف . يعتبر الصوفي نفسه ، في كل مكان وزمان ، فوق الصعيد الأخلاقي يرى نفسه هو على الأقل في حقل هو غير الحقل الأخلاقي ومختلف عنه ، ترى الصوفية الأوبانيشادية أنها من أن تكون مذهباً اجتماعياً ، أو مناقبية من نوع ما فهي لا ترى أدنى إمكانية لاستخلاص الواجبات من تأمل العالم ، أو من التفكير بطبيعة الواقع والانخراط فيه . تدعو للاتحاد مع " المطلق " والاتحاد عمل روحي بحت ، بعيد عن ممارسة الخير أو اجتناب الشر ، بعيد أيضاً عن الناس والنظم والحياة ، التصوف رفض للمجتمع ، وبالتالي فهو لا يهتم بعمل البر ، فليس هناك مكان ليمارس فيه المتصوف تعاليم الخير .لأنه انعكاف على الذات، وتأمل، ومراقبة، في سبيل الاتحاد مع برهمن إنه مذهب صوفي، ميزته اللافعل الاجتماعي، ومستلزماته المعرفة ، والاختلاء، وتركيز الذهن، وممارسات معينة[(١)]

(١)انظر كتاب الفلسفة في الهند –١٣٨,١٣٧–باختصار.

يُستخلص من النصوص السابقة أن عقيدة الاتحاد مع المطلق، والذوبان في الإله من العقائد الهندوسية القديمة ، وهي عقيدة مقتضاها أن الإنسان عندما يتخلص من ذنوبه عن طريق التناسخ بأن تنتقل روحه من بدن إلى آخر حتى تتطهر بشكل كامل ، عندئذ تتخلص روحه من دورة التناسخ والتنقل بين الأبدان ، ويتحقق لها الاتحاد ببراهما وهو الخالق في الهندوسية ، كما يستخلص من هذه النصوص أن الخالق عند الهندوس يسري في كل شيء فهو موجود في كل مخلوق ويتشكل بكل شيء ، فالكائنات عنه صدرت وإليه تعود ، فهي موجودة فيه وهو موجود فيها ، وهذا يعني أنه ليس هناك موجود غير هذا الإله، وكل الموجودات الأخرى مظاهر له ، وهذا عين القول بوحدة الوجود .

المبحث الثاني

وحدة الوجود في الطاوية – الصينية

ظهرت الطاوية في الصين ويرجع تاريخها إلى أكثر من ١٨٠٠سنة ، الغالبية يعتقدون أن الطاوية تشكلت في القرن الثاني الميلادي ، وتتجسد رموزها الرئيسية في تأسيس " طاوية وودومي " و" طاوية تايبينغ " مؤسس طاوية وودومي ، هو تشانغ داو لينغ ، وكانت منتشرة بصورة عامة في مقاطعة سيتشوان بجنوب غربي الصين وقد سميت بهذا الاسم لأن المؤمن بها كان عليه أن يقدم خمسة دو – وحدة كيل صينية– من الأرز ... ظهرت طاوية تايبينغ في الوقت الذي ظهرت فيه طاوية وودومي ، ومؤسسها هو تشانغ جياو، كانت موجودة رئيسيا في مقاطعة خبي بشمال الصين ، وحظيت بلقبها بالتزامها بـ " كتب تايبينغ المقدسة " وقد بلغ عدد الذين اعتنقوها مئات الآلاف ، أعلن تشانغ جياو تأسيس طاوية تايبينغ مستهدفا

تطبيق المبادئ السماوية والأرضية لتعليم وإنقاذ الناس ، وتحقيق ازدهار الأمة وسلامة الشعب[١]

مفهوم كلمة : طاو أو تاو عند الصينيين :

أصل الكلمة في اللغة الصينية هو الصراط ثم استعملت في الفلسفة لتخرج من مدلولها الملموس إلى مدلولها المطلق... وينمو التاو عند لاوتسه وتلامذته فيصبح هو المبدأ والمآل، المبدأ الذي تأتي منه كل الأشياء ، والمآل الذي ترد إليه كل الأشياء ، ويقول " محيط الكلمة الصينية " إن التاو هو القانون الطبيعي أو الكيان الذاتي للأشياء، ... لكن الأساس يبقي أن التاو هو مطلق التاويين : مبدأ الأشياء ، جوهرها ، طبيعتها الذاتية ، محركها ، وربما رانت عليه من بعض الوجوه ملامح روحانية توحي بها بيانات الفلاسفة المشوبة بنزعة صوفية والمكتوبة بنفس شعري لكنه– التاو– لا يخرج في كل الأحوال عن مقتضي الكون والطبيعة الكونية[٢] ، التاو إذن هو البسيط الذي هو مبدأ كل الأشياء ، إذا استخدمنا لغة الفلاسفة المسلمين، وهو بهذا التحديد يمكن أن يكون مقابلا لـ : الباري ، العقل الأول، المحرك الأول[٣]

نستخلص مما سبق أن الطاوية ديانة قديمة ظهرت في الصين منذ حوالي ثمانية عشرة قرنا من الزمان ، ويري الأكثرون أنها ظهرت في القرن

---

(١)انظر كتاب الأديان في الصين/تأليف: يانغ جي–٨٠– ترجمة:تشنغ بوه رونغ، ويانغ جيان فن ، وآخرون، الناشر: دار النشر الصينية عبر القارات – مكتبة المهتدين الإسلامية–أكتوبر ٢٠٠٤.

(٢)انظر كتاب التاو/تأليف لاوتسه تشوانغ تسه–١٥–باختصار ، ترجمة ودراسة: هادي العلوي، الناشر:دار الكنوز الأدبية–بيروت لبنان و الطبعة الأولي ١٩٩٥م.

(٣)المرجع السابق : ١٦ .

الثاني الميلادي ، وأنها كانت من الديانات التي تتميز بعدد كبير من الأتباع، وقد تعددت أقولهم في المعنى المراد من الطاو ، فقال البعض أنه الصراط ، ورأي البعض أنه القانون الطبيعي أو الكيان الذاتي للأشياء ، بينما ذهب آخرون إلى أن الطاو هو مبدأ الأشياء ومآلها ، وهذا هو المفهوم الراسخ عندهم والمقبول لديهم ، فهو الذي وجدت منه الأشياء وهو الذي ترجع إليه الأشياء مرة أخرى ، وهذا يعني أنهم يعتقدون أن الطاو هو الخالق لهذا العالم والموجد له من العدم ، كما يعتقدون بأن الطا هو العالم

هذه نُبذة مختصرة عن تاريخ ظهور الطاوية في الصين ، وعن مفهوم الطاو لدى الطاويين ، وأنه عندهم مقابل للباري لدى الفلاسفة المسلمين ، وفيما يلي عرض لبعض النصوص التي تدل على رسوخ عقيدة وحدة الوجود في ديانة الطاو.

في محاورة دارت بين أحد الطاويين وهو : تشوانغ تزو ، وبين حكيم كونفوشي يدعى تونغ كاو تزو ، حيث يسأل الحكيم الكونفوشي عن مكان وجود الطاو– الموجد – ويجيبه الطاوي تشوانغ تزو ، وقد جاءت المحاورة كالتالي :

" تونغ كاو تزو سأل تشوانغ تزو : أين يوجد ذاك الذي تدعوه بالتاو؟ فأجاب تشوانغ تزو : إنه في كل مكان . فقال تونغ كاو : أين بالتحديد ؟ فأجاب تشوانغ تزو : إنه في النملة . فقال تونغ كاو : كيف له أن يوجد في هذه الدرجة السفلى ؟ فتابع تشوانغ تزو قائلاً : إنه في بلاطة الأرض هذه . فقال تونغ كاو : إن هذا لعمري أدهى وأمر ، فتابع تشوانغ تزور قائلاً : إنه حتى في الروث ، وهنا سكت تونغ كاو ولم يجب ببنت شفة ، فأردف تشوانغ تزو شارحاً وجهة نظره : إن أسئلتك هذه لا تنفع في اكتناه جوهر

التاو ، عليك أن لا تسأل عن أشياء محددة يوجد فيها التاو ، لأنه لا وجود لأي شيء بدون التاو[١] . فإذا كان التاو هو الخلفية الساكنة للوجود، والمبدأ السابق على مظاهر الكون والطبيعة، والمطلق الحر من شروط المكان والزمان، فإنه في الوقت ذاته مصدر عملية الخلق الدائمة التي تنطلق منه وتعود إليه فهنا يتخلل التاو جميع مظاهر الكون، ويتحول إلى مالا يحصي من الأشياء والأجزاء المتكثرة، المستقلة من حيث ظاهرها والمتوحدة عند جذورها في المطلق الساكن الذي نشأت عنه، وبذلك تنحل الوحدة إلى كثرة وتؤول الكثرة إلى وحدتها الأصلية، أوكما يقول تشوانغ تزو أيضا:" إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية فروقها واختلافها فإننا نجد كل ما حولنا متباعداً مستقلاً ، حتى إن المسافة بين أجهزتنا الداخلية تبدو أبعد من المسافة بين دولتي تشو ويوهي، أما إذا نظرنا إلى الأشياء من ناحية تماهيها وتطابقها فإن كل هذه الأشياء تبدو لنا على حقيقتها مندغمة في واحد"[٢]

يتبين من هذه النقول أن عقيدة وحدة الوجود راسخة في الديانة الطاوية ، بل إن هذه الديانة قائمة على الوحدة بين الخالق وبين المخلوقات، فإذا كان الطاوعندهم بسيط يسري في كل شيء ويتشكل بكل شيئ، علي نحو ما قال تشوانغ تزو في جوابه على الحكيم الكونفوشي ، يتشكل بشكل النملة ، ويتشكل بشكل البلاط الذي نمشي فوقه، وبشكل الروث –كما يزعم– ويتحول إلى مالا يحصي من الكائنات، ويتخلل جميع مظاهر الكون، وليس ثمة شيء لا يسري فيه الطاو ويتشكل بشكله ، فهذا إن دل

(١)انظر كتاب التاو /تي–تشينغ –٢٨– إنجيل الحكمة التاوية في الصين، ترجمة وشرح وتعليق : فراس السوح ، الناشر : دار علاء الدين للنشر والتوزيع والترجمة – دمشق–سوريا– الطبعة الأولى ١٩٩٨م.

(٢)انظر المرجع السابق –٢٨–.

على شيء فإنما يدل على أن عقيدة الوحدة بين الموجد وبين الموجودات متجذرة في ديانة الطاوية .

ويقول تشوانغ مبينا أن الأشياء كلها واحدة دون تمييز :"أن تقوم بتمييز –بين الاشياء– هو أن تقوم ببعض التركيب، لكن البناء كالتخريب، وبالنسبة للأشياء ككل لا يوجد بناء أو تخريب:إنها تميل إلى الاتحاد وتصبح واحدة"ويقول أيضا:"السماء والأرض، وأنا جئنا إلى الوجود معا وكل الاشياء معي واحدة"، وقد علق الدكتور هادي العلوي على هذا قائلا:

ولا يذهبن وهم القارئ إلى الكون الدفعي فالحكيم التاوي لا يعنيه لأنه لا يعرفه ، وليست المعية هنا إلا وحدة الأصل والمنشأ، وحدة الشروط والعلاقات التى يوجد الشيء ، مرهونا ، مشروطاً ، بها ، وهي في آخر المطاف نشوء الكل من المبدأ ، وعودته إلى المبدأ .. التوحد في التاو ها نحن أمام وحدة الوجود : ليس التاو ، عرشاً يحمله ثمانية ، بل مطلق داخل في تخوم النسبي ، وهوكما علمت فيما سلف حاضر في الكائنات لا يفصله عنها مسافة في الزمان ولا في المكان ، ذلك ما يقوله تشوانغ : هو في كل مكان وعندما سئل : مثله لنا قال : إنه هنا في هذا النمل ، في الأدغال، في الآجر والقرميد.. وفي الروث أيضا"[(١)]

وجاء في كتاب الطريق إلى الفضيلة :" من يتبع الطاو، يصير هو و"الطاو" واحدا"[(٢)]

(١) انظر كتاب التاو/ لاوتسه تشوانغ تسه–٣٠، ٢٩–

(٢) الطريق إلى الفضيلة –نص صيني مقدس– ٢٩–/تأليف لو تسو، ترجمة علاء الديب، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب –١٩٩٨.

وجاء في هذا الكتاب أيضا:"وبالقداسة تكون واحدا مع "الطاو"أن تكون واحدا مع "الطاو" يعني الخلود"[١]

المبحث الثالث

وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية

تبين في المبحثين السابقين أن الاعتقاد بوحدة الوجود راسخ في الديانتين الوثنيتين وهما –الهندوسية في الهند ، والطاوية في الصين_ فالهندوسية تمثل المصدر الأول لعقيدة وحدة الوجود ، والطاوية تمثل المصدر الثاني لهذه العقيدة ، أما المصدر الثالث لوحدة الوجود فيتمثل في الفلسفة اليونانية ، فإن الدارس لهذه الفلسفة يجد أن الاعتقاد بوحدة الوجود يتجلى بوضوح لدى الطبيعيين الأوائل ، كما يتجلى لدى الأفلاطونيين المحدثين، ومن ثم إن هذا المبحث يشتمل على مطلبين :

المطلب الأول: عقيدة وحدة الوجود لدى الإيونيين.

المطلب الثاني: عقيدة وحدة الوجود لدى الأفلاطونيين المحدثين.

(١)ا لطريق إلى الفضيلة –نص صيني مقدس– ٢٢–/تأليف لو تسو، ترجمة علاء الديب، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب –١٩٩٨.

المطلب الأول

وحدة الوجود لدى الإيونيين.

والفلاسفة الإيونيون سموا بذلك نسبة إلى إقليم إيونيا، وهو إقليم يوناني في أسيا الصغري تُنسب إليه المدرسة الإيونية[١] وتتألف المدرسة الإيونية من ثلاثة فلاسفة هم: طاليس وأنكسيمندريس وأنكسيمنس، وهم جميعا من مدينة ملطية أهم ثغور إيونيا... ولذلك تعرف المدرسة باسم مدرسة ملطية، وهذه المدينة مشهورة منذ القرن الحادي عشر ق.م. وكانت ميناءَ مهما للتجارة بين آسيا والبلاد الغربية[٢]

طاليس :

ولما كان طاليس هو الفيلسوف الأشهر في المدرسة الإيونية فإننا سنكتفي به كنموذج من النماذج التي كانت تعتقد بان أصل العالم واحد وهو الماء .

وُلد في ملطية حوالي سنة ٦٤٠ق.م. من أسرة نبيلة، بل يقول بعض المؤرخين إنها كانت الأسرة المالكة ، اعتلي بعض أفرادها متعاقبين عرش ملطية، وارتقي البعض الآخر أهم المناصب الدينية في الدولة، وطاليس نفسه كان من أعاظم رجال السياسة في عصره لعب دورا هاماً في سياسة مدينته وارتحل إلى الشرق وأقام في مصر زمنا استفاد فيه قبسا من معارفها وأخيرا توفي سنة ٥٤٨ق.م عن اثنتين وتسعين سنة ... يرى طاليس أن

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية من بدايتها حتي المرحلة الهلنستية/الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا-٤٥-الناشر :مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر-بيروت لبنان الطبعة الأولي ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية / الدكتور محمد مرحبا-٤٥-باختصار.

الماء هو الجوهر الأصلي والمبدأ الأول الذي تكون منه الأشياء ... فالوجود ينحل في نظر طاليس إلى الماء، فالماء إذن هو أصل جميع الموجودات، إنه الأصل الأول للأشياء وهو العنصر الأقصى الذي يصير إليه تحلل الاشياء، وإن ما نري من اختلاف في جزئيات الكون ليست إلا نتاج تحولات عرضت للماء فغيرت مظاهره الخارجية أو خاصياته التي كانت ترافقه وهو ماء، وأحلت محلها خاصيات أخري تتلاءم مع المظهر الجديد الذي استحال إليه الماء[(١)]

وقد حاول طاليس أن يستدل على أن الماء هو المبدأ الأول والجوهر الأوحد للكون كله فقال: إن النبات والحيوان يتغذى بالرطوبة ومبدأ الرطوبة الماء فما منه يغتذي الشيء يتكون منه بالضرورة، ثم إن النبات والحيوان يولد من الرطوبة فإن الجراثيم الحية رطبة وما منه يولد الشيء فهو مكون منه، بل إن التراب يتكون من الماء ويطفى عليه شيئا فشيئا كما يشاهد في الدلتا المصرية وفي أنهر إيونية حيث يتراكم الطمي عاما بعد عام ، وما يشاهد في هذه الأحوال الجزئية ينطبق على الأرض بالإجمال فإنها خرجت من الماء وصارت قرصا طافيا على وجهه كجزيرة كبري في بحر عظيم، وهي تستمد من هذا المحيط اللامتناهي العناصر الغاذية التي تفتقر إليها فالماء أصل الأشياء[(٢)]

نستخلص مما سبق أن طاليس وهو من فلاسفة إيونية الطبيعيين، بل هو أولهم وأشهرهم يذهب إلى أن المبدأ الأول للأشياء هو الماء ، فكل الاشياء تتكون عنده من الماء وتتغذي على الماء ، وأن ما نراه من اختلاف

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية / الدكتور محمد مرحبا ٣٧، ٤٨ باختصار.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية/الدكتور يوسف كرم مدرس بكلية الآداب الجامعة المصرية سابقا–١٣– الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر–١٣٥٥هـ–١٩٣٦م.

في مفردات الكون فما هو إلا تحولات للماء حيث يتشكل الماء عنده فيظهر في صورة إنسان، ويتشكل ثانيا فيظهر في صورة حيوان، وهكذا حتي يظهر في كل صورة من صور الكون وأشكاله، وما يذهب إليه طاليس في هذا الصدد هو ما يراه فلاسفة إيونية من أن مبدأ الكون واحد، وإن اختلف هذا المبدأ بعضهم يرى أنه الماء كما ذهب طاليس ، وبعضهم يري أنه النار، وآخر يري أنه الهواء، لكنهم متفقون على أن للعالم أصلا واحدا يأخذ أشكالا مختلفة، وصورا متغايرة، مما يؤكد أنهم من أصحاب القول بوحدة الوجود

ويقول وولتر ستيس مبينا أن مبدأ الوجود هو الماء عند طاليس:"
ولم تكن هناك كتابة لطاليس واردة حتي في زمن أرسطو ويسود الاعتقاد أنه لم يكتب شيئا، وتتألف فلسفته–إذا جاز لنا أن نسميها فلسفة بقدر ما نعرف– من قضيتين : أولا : أن أصل الاشياء جميعا هو الماء، وكل شيء يعود إلى الماء، وثانيا: أن الأرض قرص مسطح مستو يطفو على الماء، والقضية الأولى التي هي القضية الرئيسية تعني أن الماء هو النوع الأول الواحد للوجود، وأن كل شيء آخر في الكون ليس إلا مجرد تغير للماء، ولابد أن ينشأ سؤالان على نحو طبيعي : لماذا اختار طاليس الماء كمبدأ أول؟ وبأية عملية يمكن للماء– في رأيه– أن يتغير إلى الأشياء الأخرى ، كيف تشكل الكون ماء؟ ونحن لا نستطيع أن نجيب على كلا السؤالين على وجه اليقين، يقول أرسطو [(١)] أنه قد يكون طاليس على الأرجح قد استمد رأيه

(١) وُلد ارسطو في اسطاغبرا (وتعرف اليوم باسم ستافرو) وهي مدينة صغيرة في شبه الجزيرة الخلقيدية سنة٣٨٤ق.م. وتوفي في خلقيس سنة ٣٢٢ق.م، يمكن القول عن أرسطو إنه كان أعظم = = نوابغ النظر العقلي في تاريخ الفكر اليوناني[معجم الفلاسفة/لجورج طرابيشي–٥٢– الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر –بيروت لبنان، الطبعة الثالثة تموز(يوليو) ٢٠٠٦.

من ملاحظة أن تغذية جميع الأشياء من الرطوبة، وأن الحرارة الفعلية نفسها تتولد منها وأن الحياة الحيوانية مستمدة من الماء(...) ومن كون بذور الأشياء جميعا ذات طبيعة رطبة، وأن الماء مبدأ أول لكل الأشياء الرطبة، قد يكون هذا هو التفسير الحق[١]

يتبين من هذا النص أنه بصرف النظر عن الأسباب التي على أساسها اختار طاليس الماء كمبدا أول ووحيد للوجود فإنه يوضح بشكل جلي أن الاعتقاد بوحدة الوجود كان هو الأساس والقاعدة التي أقام عليها طاليس فلسفته الطبيعية، حيث يعتقد أن كل أجزاء الكون إنما هي تغيرات للماء ، وتشكلات له، وما يقوله طاليس في هذا الشأن هو ما يعتقده فلاسفة المدرسة الإيونية.

المطلب الثاني

وحدة الوجود في الأفلاطونية المحدثة.

الأفلاطونية المحدثة–أو مذهب الإسكندرانيين كما يسميها العرب– هي إحدى الموجات الفكرية التي انطلقت من الإسكندرية في القرون الأولى للميلاد، فقد كانت الإسكندرية عاصمة للعلم والفكر خلفت أثينا بعد أن خبا ضوؤها وزال عنها ما كان يشد الرحال إليها، و لقد تلاقت في الإسكندرية مذاهب جمة ومدارس متعددة ، وذلك لموقعها الجغرافي بين الشرق والغرب... وفيها نشطت الرياضة والكيمياء ووضعت أسس تصنيف العلوم ونقد النصوص وشُرحت المذاهب الدينية والفلسفية، وازدهرت التجارة والصناعة، وفيها أخيرا امتزجت الآراء والأفكار والمذاهب والأديان

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية/تأليف وولتر ستيس–٣٠– باختصار، ترجمة: مجاهد عبد المنعم مجاهد، الناشر: دار الثقافة للنشر والتوزيع– القاهرة–١٩٨٤.

والمعتقـدات ، واصـطبغت اليهوديـة أولا ثـم المسـيحية ثانيـا بالصـبغة اليونانية [١]

وكما كانت المدرسة الإيونية موطنا لعقيدة وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية فإن الأفلاطونية المحدثة تعد أيضا موطنا ومصدرا لهذه العقيدة كما كانت موطنا لكثير من المعتقدات والمذاهب والأديان المختلفة ، وقد كان أشهر ممثلي الأفلاطونية المحدثة هما أفلوطين وزينون ، وسوف نكتفي بالحديث عن أفلوطين كممثل لعقيدة وحدة الوجود في الأفلاطونية المحدثة.

أفلوطين :

أشهر مجددي الأفلاطونية وباعثها بعد فيلون ...ولد في ليقوبوليس سنة ٥ .م . أي أنه كان مواطنا مصريا ذا اسم روماني وتربية يونانية، وإن كان لا يحب أن يتحدث إطلاقا عن وطنه ولا عن آبائه وأسرته، كما يقول تلميذه فرفوريوس، ولم يهتم بدراسة الفلسفة إلا عند بلوغه الثامنة والعشرين من عمره...ومرت الأيام والسنون وأدركته الشيخوخة وجاءه مرض الموت سنة ٧٠م ، فانتهت حياة أستاذ من أعظم أساتذة العصر الإسكندري [٢]

يقـول وولتـر سـتيس مبينـا وحـدة الوجـود عنـد أفلـوطين: " لقد رأي_أفلوطين _ أن الله واحد على الأطلاق ، وهو الوحدة الكامنة وراء كل كثرة، ...إن أفلوطين يعتبر الهيولي أساس الثنائية وعلة كل شر، ومن ثم فإن موضوع الحياة ليس أمامه_ كما هو الحال عند أفلاطون_ إلا أنه يهرب

(١)انظر تاريخ الفلسفة اليونانية/الدكتور محمد مرحبا -٣١٧- باختصار.

(٢)المرجع السابق-٣٢٦، ٣٢٥-باختصار.

من العالم المادي للحواس، والخطوة الأولي في عملية التحرر هذه هي (التطهير) وهي تحرير الإنسان من سادة الجسم والحواس، ويتضمن هذا كل الفضائل الأخلاقية العادية- والخطوة الثانية هي الفكر والعقل والفلسفة، وفي المرحلة الثالثة ترتفع النفس فوق الفكر إلى حدس العقل، ولكن كل هذه الأمور ليست سوي إعداد للمرحلة النهائية والقصوى للارتفاع إلى الواحد المطلق عن طريق التجاوز والبهجة والوجد، وهنا نجد الفكر كله يتجاوز وتنتقل النفس إلى حالة من السكر اللاشعوري وخلالها تتحد مع الله على نحو صوفي[١] وهذا الفكر ليس فكرا عن الله وهو ليس حتي إن النفس تري الله، لأن كل أمثال هذه النشاطات الواعية تتضمن انفصال الذات عن موضوعها، وفي الوجد ينمحي كل أمثال هذا التفكك والانفصال: إن النفس لا تتطلع إلى الله من الخارج بل تصبح متحدة مع الله، إنها تصبح الله ومثل هذه السكرات الصوفية لا يمكن ألا نذكرها وتغوص النفس في ارتدادها ...ويزعم أفلوطين أنه قد ارتفع إلى هذا الوجد الإلهي عدة مرات إبان حياته[٢]

نستخلص مما سبق أن أفلوطين يبني فلسفته على الاعتقاد الصريح بوحدة الوجود، حيث يري أن وجود الواحد -المُوجِد- هو الوحدة وراء كل كثرة، فكل كثرة تظهر للعيان هي في حقيقتها الواحد المطلق ، كما يذهب أفلوطين إلي أن النفس تبلغ في طريقها إلى الله حالة من الوجد تتحد فيها مع الله ، بل تكون هي الله -بحسب زعمه- وقد زعم أفلوطين كذلك أنه

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية/ وولتر ستيس-٣٠٦، ٣٠٣- باختصار.

(٢) تاريخ الفلسفة اليونانية/ وولتر ستيس-٣٠٦- باختصار.

عاش هذه التجربة ، واتحدت نفسه مع الله عدة مرات – تعالى الله عن ذلك وتعظم –.

ويقول أفلوطين: " كل ما كان بعد الأول فهو من الأول اضطراراً ، إلا أنه إما أن يكون منه سواء بلا توسط ، وإما أن يكون منه بتوسط أشياء أخر ، هي بينه وبين الأول ؛ فيكون إذن للأشياء نظام وشرح . وذلك أن منها ما هو ثان بعد الأول ومنها ثالث ؛ أما الثاني فيضاف إلى الأول ، وأما الثالث فيضاف إلى الثاني ، وينبغي أن يكون قبل الأشياء كلها شئ مبسوط (أي بسيط) ، وأن يكون غير الأشياء التى بعده ، وأن يكون مكتفياً غنياً بنفسه وأن لا يكون مختلطاً بالأشياء ، وأن يكون حاضراً للأشياء بنوع ما ، وأن يكون واحداً ، وأن لا يكون شيئاً ما ، ثم يكون بعد ذلك واحداً ، فإن الشئ إذا كان واحداً على هذا النوع كان الواحد فيه كذبا وليس واحدا حقا، وألا يكون له صفة ولا يناله علم البته، وأن يكون فوق كل جوهر حسي وعقلي، وذلك أنه إن لم يكن الأول مبسوطا واحدا حقا خارجا عن كل صفة وعن كل تركيب لم يكن أول البته"[(١)] وقد علق الدكتور محمد مرحبا على هذا النص فقال: في هذا النص يبين لنا أفلوطين أن كل ما في الوجود فإنما يرتد إلى "الأول" ضرورة ، فلا شيء غير" الأول" فالأول هو مصدر الكائنات جميعا ومفيضها ، والأشياء إنما صدرت عنه في نظام تنازلي متدرج[(٢)]

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوي : "والناحية الذاتية من مذهب أفلوطين تقوم على أساس أن الغاية من الفلسفة هي الإرشاد إلى الطريق

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية/الدكتور محمد مرحبا–٣٣٢، ٣٣١–.

(٢) المرجع السابق–٣٣٢– .

الذي به يصل الإنسان إلى إفناء الذات في الوحدة الإلهية وإلي إيجاد التجربة الروحية التي يستطيع الإنسان بواسطتها أن يتحد بالواحد، والمزاج المكون لهذه التجربة هو في الأصل الوجد"[(١)]

يتبين من ذلك أن أفلوطين وهو ممثل للأفلاطونية المحدثة يعتقد أنه بوسع النفس أن تتحد بالله إذا سلكت طريقا معينا هو طريق الوجد الصوفي ، وما يعتقده أفلوطين هو ما تؤمن به الأفلاطونية المحدثة وتدعوا إليه ، ومن ثم فإن الأفلاطونية تعد مصدرا من مصادر وحدة الوجود في الفلسفة اليونانية.

(١) خريف الفكر اليوناني/تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي-١٢٢، ١٢١- الناشر: مكتبة النهضة المصرية -شارع عدلي باشا- القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٧٠.

الفصل الثاني: فلسفة وحدة الوجود عند اسبينوزا:

تقوم فلسفة وحدة الوجود عند اسبينوزا علي أساس أنه ليس في الكون إلا حقيقة واحدة، فقد اعتقد اسبينوزا أن الله تعالي أو الطبيعة شيئ واحد، مساويا بفلسفته بين الله والطبيعة ، وأن جميع الكائنات جزء منها، فالجوهر عند سبينوزا واحد فقط "الله أو الطبيعة" والفكر والامتداد من صفات هذا الجوهر ، إضافة إلي عدد لا متناه من الصفات اللامتناهية، هذا هو الأساس لفلسة وحدة الوجود عند سبينوزا ، ومما هو جدير بالذكر في هذا الفصل أن نعرف ما إذا كانت فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا جاءت نتاجا لعقله الخالص وفكره المحض أم أنه اعتمد في تكوين هذه الفلسفة علي مصادر أخري ، ومن ثم فإن هذا الفصل ينقسم إلي ثلاثة مباحث هي:

المبحث الأول: نشأة سبينوزا وأهم مؤلفاته.

المبحث الثاني: فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا.

المبحث الثالث: المصادر التي أخذ عنها سبينوزا فلسفة وحدة الوجود.

المبحث الأول: نشأة سبينوزا وأهم مؤلفاته:

وُلد في أمستردام في ٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٢ ، ومات في لاهاي في ٢٠ شباط ١٦٧٧. لم تعرف حياته أحداثا كثيرة، بل قضاها كلها في الدرس والتأمل ، وينحدر سبينوزا من أسرة من اليهود البرتغاليين.وقد هرب جد الفيلسوف وأبوه (إبراهيم وميخائيل) من الاضطهادات الدينية ووصلا إلي أمستردام سنة ١٩٥٣،... وفي أمستردام وُلد باروخ (مبارك بالعبرية،ولذلك سمي باللاتينية بندكتس)سبينوزا ٢٤ تشرين الثاني ١٦٣٢.ومنذ عام ١٦٢٨ كان إبراهيم سبينوزا قد بات يُعد في تلك المدينة زعيما للجالية اليهودية فيها؛ أما ميخائيل فكان يهتم بالأعمال الخيرية وبالكنيس.ولم يكن ثمة مجال في الأوساط التي ترعرع فيها باروخ ، للإنعتاق أو للإندماج ، وكان التعليم في المدرسة العبرية ينحصر أولا في التوراة والتلمود، وفي زمن لاحق بالفلاسفة اليهود، ابن عزرا وابن ميمون، وكرسكاس. بيد أن مكتبة المدرسة كانت مزودة بكثرة من المؤلفات العبرية في الرياضيات والطبيعيات،كما تولي علامة ألماني يُدعي إرميا فلينغر تعليم باروخ اللاتينية التي أتقنها فيما بعد علي يد يسوعي خالع للثوب الكهنوتي يُدعي فان دن إند[١]

يقول برتراند رسل عن حياة سبينوزا:" وكانت حياة"سبينوزا" بسيطة للغاية قدمت أسرته إلي هولند، من أسبانيا أو ربما من البرتغال ، لتنجو من محاكم التفتيش ، وقد تربي هو نفسه في كنف التعاليم اليهودية ، ولكنه وجد من المستحيل أن يظل محافظا عليها ، وقد عُرض عليه ١٠٠٠ فلورين في

(١) انظر معجم الفلاسفة – المناطقة– المتكلمون– اللاهوتيون– المتصوفون/ إعداد جورج طرابيشي – ٣٥٩ – باختصار ، الناشر: دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت الطبعة: الثالثة – تموز (يوليو) ٢٠٠٦م.

السنة ليحجب شكوكه؛ وحين رفض جرت محاولة لاغتياله ، وحين فشلت – محاولة الاغتيال– لُعن بجميع اللعنات ،... عاش هادئا وادعا في"أمستردام" ثم في "لاهاي" ، جانيا رزقه بصقل العدسات . كانت مطالبه قليلة وبسيطة، وأظهر خلال حياته لامبالاة نادرة بالمال. والقليلون الذين عرفوه أحبوه حتي ولو كانوا غير راضين عن مبادئه،... وقد قضي بالسل الرئوي في مقتبل العمر، وهو في الثالثة والأربعين"[١]

ويقول يوسف كرم :" وُلد سبينوزا بين تلك الطائفة الإسرائيلية التي استقر بها المقام في أمستردام منذ أواخر القرن السادس عشر ، ورُربِي علي التعاليم الموسوية الخالصة، فتعلم العبرية، وقرأ الكتب المقدسة وشروحها، ووقف علي قصص الأنبياء ، ومؤلفات كبار مفكري اليهود في القرون الوسطي ، أمثال: موسي بن ميمون ، وابن جبريل الأندلسي، ثم اتصل بمن حوله من المسيحيين ، وتعلم اللاتينية ، وأخذ يدرس "ديكارت" ورجال عصر النهضة ك"برونو" وبعض الفلاسفة المدرسيين ، وخاصة القديس "توماس" و"أوغسطين" ، وكبار فلاسفة اليونان ك "ديمقريطس" و"سقراط" و"أفلاطون" و"أرسطوطاليس"، ولقد تركت هذه الدراسة المستفيضة ، والاطلاع الواسع أثرا كبيرا في نفسه ، فلم يقبل تعاليم التوراة علي عِلَّاتها،بل حاول أن يفسرها تفسيرا عقليا، ويسلك بها مسلكا فلسفيا، ... بيد أن نزعة الشك والحرية هذه ما كانت لترضي آباء الكنيسة اليهودية، فحكموا عليه بالطرد والحرمان ولمَّا يناهز الرابعة والعشرين من عمره، ولم يكد يصدر هذا الحكم القاس حتي أخذت الجماهير تنفر منه وتظن به الظنون ، وهمَّ أحد متطرفي اليهود بقتله ، فرأي أنه لا مناص من الهجرة ، وولي وجهه شطر ليدن ، حيث قضي

(١) انظر تاريخ الفلسفة الغربية/ برتراند رسل – ٣/ ١٢١ – باختصار ، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧م.

علي مقربة من ثلاث سنوات أو يزيد ثم انتقل بعد ذلك إلي لاهاي مدينة السلام، واستمر بها إلي أن مات عن (٤٤سنة) "[١]

وجاء في" موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب ":"أن سبيتوزا تعرض لمضايقات جمّة بسبب موقفه المتحرر من تقاليد الممارسات الدينية مما أدي إلي حرمانه من قبل الكنيس اليهودي .وقد وجد سبينوزا في الأوساط المسيحية معلمين عرَّفوه علي شتي أنواع العلوم، فتعلم مبادئ الفيزياء، والهندسة ، والفلسفة الديكارتية ، بإشراف الطبيب ف.أ.فان دِن إدني. تأثر كثيرا بالفلسفة الديكارتية، وانعزل في مدينة لاهاي ونذر نفسه للتأمل، وعاش من صقل الزجاج" [٢]

نخلص مما سبق إلي أن سبينوزا كان فيلسوفا يهودي الديانة ، من أصل برتغالي ، وقد هاجرت عائلته إلي هولاندا هربا من محاكم التفتيش، ونظرا لموقفه الناقد للكتاب المقدس فقد تم حرمانه ولعنه ، وأصبح منبوذا لدي المجتمع اليهودي ، لكنه عاش متخفيا في أمستردام ، حيث قضي عمره في التأمل والبحث الفلسفي ، جانيا قوت يومه من صقل العدسات.

مؤلفات سبينوزا:

يقول الأستاذ يوسف كرم عن النتاج العلمي لباروخ سبينوزا :"

(١)" ومن أهم ما خلف لنا الرسالة الدينية السياسية" التي حاول فيها التعليق علي بعض نصوص التوراة ، والتوفيق بين الفلسفة والدين ، وقد

(١) انظر دروس في الفلسفة / للأستاذ يوسف كرم ، و د. إبراهيم مدكور – ٣٢٨,٣٢٧ – باختصار ، الناشر: عالم الأدب للترجمة والنشر ، الطبعة الأولي : ٢٠١٦م .

(٢) موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب/ إعداد الأستاذ روني إيلي ألفا – ١/ ٥٤٩ – مراجعة: د. جورج نخل ، قدم له: الرئيس شارل حلو ، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولي: ١٤١٢ ÷ – ١٩٩٢ م .

صودرت عند ظهورها مجردة من اسم مؤلفها ، فساعد هذا علي نشرها أكثر مما كان يُنتظر ، وتهافت الناس عليها باسم "رسالة طبية ، أوقصة تاريخية"

(٢)"الأخلاق" وهو أقوم كتبه وأتمُّها عرضا لنظريته ، قضي فيه عشر سنوات كاتبا مراجعا منقحا موسعا ، وصاغه في قالب رياضي محكم دقيق ، فحاكي إقليدس في "عناصره" ، وديكارت في "ردوده علي بعض معترضيه" وجاء الكتاب عبارة عن جملة تعاريف ومبادئ وقضايا قد ارتبط بعضها ببعض ، وبالرغم من أنه أتم تأليفه في أثناء حياته؛ فإنه لم يُنشر إلا بعد موته ، خشية – في الغالب – من حملة النقاد وتهجم الخصوم ، وقد كان يعتد به اعتدادا كبيرا ويري فيه كل ذخيرته في الحياة[١]

ويقول فريدريك كوبلستون:" لم ينشر سبينوزا سوي عملين أثناء حياته، ولم يظهر سوي عمل واحد منهما باسمه ، هذا العمل هو مبادئ الفلسفة الديكارتية وقد عرضه بالطريقة الهندسية ، وظهر مُؤَلَّفه أفكار ميتافيزيقية في عام ١٦٦٣ أما مؤلفه "رسالة لاهوتية سياسية" فقد نُشر غُفلا عام ١٦٧٩ ، ونشرت مجموعة من مؤلفاته بعنوان" المؤلفات المُخَلَّفَة بعد وفاته بفترة وجيزة ، وهي تحوي:" رسالة في إصلاح العقل" التي كتبها في أثناء إقامته بالقرب من ليدن ، والأخلاق مبرهنا عليها بالطريقة الهندسية الذي يُعد أكثر أعماله أهمية ، ورسالة سياسية ، وتم اكتشاف مؤلفه " رسالة موجزة في الله ، والإنسان وسعادته" في عام ١٨٥١ وعُرف بوجه عام بالرسالة الموجزة ، وتحوي أعمال سبينوزا الكاملة "[٢]

---

(١) انظر دروس في الفسفة/ يوسف كرم وإبراهيم مدكور – ٣٢٩ –

(٢) انظر تاريخ الفلسفة / فريدريك كوبلستون – ٤/٢٨٤,٢٨٥ – ترجمة وتعليق: سعيد توفيق و محمود سيد أحمد ، مراجعة وتقديم: د.إمام عبد الفتاح إمام ، الناشر: المركز القومي للترجمة ، الطبعة :الأولي ٢٠١٣ م.

المبحث الثاني: فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا:

إن سبينوزا من الفلاسفة الذين اشتهرو بفلسفة وحدة الوجود في العصر الحديث ، فعندما يدور حديث ما عن وحدة الوجود ينصرف الذهن إلي الفيلسوف باروخ سبينوزا كرائد من رواد فلسفة الوحدة وعلم ومن أعلامها المعدودين، وقد كان كتابه الشهير " الأخلاق "هو أحد أهم كتبه التي ضَمَّنَها هذه الفلسفة.

يقول اسبينوزا في كتاب الأخلاق مقررا مذهبه في وحدة الوجود:" أعني بالله كائنا لا متناهيا إطلاقا، أي جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات تعبّر كل واحدة منها عن ماهية أزلية لا متناهية، أقول لا متناهيا إطلاقا، ليس في ذاته فحسب ، لأن ما يكون لا متناهيا في ذاته فحسب إنما نستطيع أن ننفي عنه عددا لا محدودا من الصفات ، أما ما يكون لا متناهيا إطلاقا ، فكل ما من شأنه أن يعبّر عن ماهية من الماهيات من غير أن ينطوي علي أي نفي ، فهو ينتمي إلي ماهيته"[١] ، هذا النص لباروخ سبينوزا صريح في تبنيه لفلسفة وحدة الوجود وإيمانه بها،حيث يري أن الله تعالي هو الجوهر الوحيد في الكون ، وأنه يتألف من عدد غير محدود من الصفات اللامتناهية والتي تمثل الطبيعة المطبوعة من وجهة نظره ، والتي يراها أحوالا لله في خلقه ، بينما يسمّي الله تعالي في ذاته بالطبيعة الطابعة.

(١) علم الأخلاق/باروخ سبينوزا – ٣٢,٣١ – ترجمة: جلال الدين سعيد ، مراجعة: د. جورج كتورة ،الناشر: المنظمة العربية للترجمة ، بناية "بيت النهضة" ، شارع البصرة – الحمراء – بيروت لبنان ، الطبعة: الأولي تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٩ م.

ويقول "فريدريك كوبلستون " مبينا مذهب سبينوزا في وحدة الوجود :" فكرة فلسفة سبينوزا البارزة للعيان واللافتة للنظر هي: لا يوجد سوي جوهر واحد ، هو الجوهر الإلهي اللامتناهي الذي يتوحد مع الطبيعة ، الله أو الطبيعة "(١)

ويقول برتراند رسل :" ومذهب "سبينوزا" الميتافيزيقي هو النمط الذي افتتحه "بارمنيدس" فثمة جوهر واحد فقط ، "الله أو الطبيعة" ، وليس ثمة شيئ متناه موجود بذاته ، وقد سلم "ديكارت" بثلاثة جواهر ، الله والذهن والمادة ، والحق أنه حتي عند "ديكارت" كان الله أشد جوهرية من الذهن والمادة ، ما دام هو الذي خلقهما ، وفي وسعه لو شاء أن يعدمهما ، ولكن باستثناء ما يتعلق بما لله من قدرة عليا ، فالذهن والمادة جوهران مستقلان ، يعرفان علي التوالي بصفتي الفكر والامتداد ، ولن يكون لدي "سبينوزا" شيئ من هذا ، فعنده أن الفكر والامتداد معا من صفات الله ، ولدي الله كذلك عدد لا متناه من الصفات الأخري ما دام يلزم له في كل حالة أن يكون لا متناهيا ، ... والنفوس الفردية والأجزاء المنفصلة للمادة ، هي عند "سبينوزا" نعتية ، هي ليست أشياء ، بل محض مظاهر للكائن الإلهي ، ولا يمكن أن يكون هناك شيئ من قبيل الخلود الشخصي كما يعتقد المسيحيون ، ولكن فقط ذلك النوع اللاشخي الذي يتمثل في أن يغدو شيئا فشيئا واحدا مع الله"(٢)

يبين رسل في هذا النص وجه الاختلاف بين ديكارت الذي يعترف بجواهر ثلاثة ، وبين سبينوزا الذي يري في الوجود جوهرا واحدا ، وهو الله

(١) تاريخ الفلسفة / فريدريك كوبلستون – ٤/ ٢٨٥ – .

(٢) انظر تاريخ الفلسفة الغربية/ برتراند رسل – ٢/ ١٢٣ – باختصار ، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

أو الطبيعة ، وأن النفوس الفردية والأجزاء المنفصلة للمادة ليست إلا مظاهرا لهذا الجوهر .

يقول سبينوزا :" الله– أعني جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية – واجب الوجود ، إذا نفيتم ذلك فتصوروا ، لو أمكنكم أن الله غير موجود ،–أي– أن ماهيته لا تنطوي علي وجوده ، بيد أن ذلك محال ، إذا فالله واجب الوجود ،... لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الله ولا أن يُتصور ،إن الله كائن لا متناه إطلاقا ، ولا يمكن أن ننفي عنه أي صفة من الصفات المعبّرة عن ماهية جوهرية ، ثم إن الله موجود بالضرورة ، فلو وُجد إذا جوهر ما خارج الله فلابد أن يُفسر هذا الجوهر بصفة من صفاته ، وهكذا سيوجد جوهران لهما نفس الصفة ، وهذا محال وتبعا لذلك لا يمكن لأي جوهر أن يوجد خارج الله ولا بالتالي أن يُتصور، إذ لو كان تصوره ممكنا لوقع تصوره بالضرورة موجودا، إلا أن ذلك محال ، ولا يمكن إذا أن يوجد أو يُتصور جوهر خارج الله يترتب علي ذلك بوضوح أن الله أحد ، أي أنه لا يوجد في الطبيعة سوي جوهر واحد وأن هذا الجوهر غير متناه إطلاقا "[١]

نستخلص من ذلك أن سبينوزا يعتمد علي إثباته لوجود الله واجب الوجود علي أن وجوده هو نفس ماهيته ، ولذلك فإذا تصورناه ثبت وجوده ، وأن الله تعالي – أو الجوهر – يتألف من عدد لا متناه من الصفات التي تعبّر كل منها عن ماهية جوهرية ، والتي تشمل أجزاء الكون ومفرداته الموجوده داخل هذا الجوهر أو المتحدة معه ، ولا يمكن أن يكون هناك جوهر موجود أو متصَوَّر خارج الله ، فليس في الطبيعة إلا جوهر واحد غير متناه بينما ما في الكون من كائنات فما هي إلا مظاهر لهذا الجوهر.

(١) انظر علم الأخلاق/ باروخ سبينوزا – ٤٠ – ٤٥ – باختصار .

ويقول الدكتور فؤاد زكريا موضحا الفرق بين مفهوم الله عند سبينوزا كعلة حرة للكون ، وبين معناه كمفردات مكونة لهذا الكون :" استخدم سبينوزا للتفرقة بين تصوريّ الله والطبعة ، تعبيري الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة وهو يفرق بين هذين التعبيرين علي النحو الآتي "أعني بالطبيعة الطابعة ما يوجد في ذاته ، وما يُتصور بذاته ، أي ما للجوهر من صفات تعبر عن الماهية الأزلية اللامتناهية ؛ وبعبارة أخري (...) أعني بها الله بقدر ما يُعد علة حرة ، وأعني بالطبيعة المطبوعة كل ما يتلو من ضرورة طبيعة الله ، أو أي صفة من صفات الله ، بقدر ما تُعد أشياء توجد في الله ، ولا يمكن أن توجد أو تتصور من دون الله" ، هنا تكون الطبيعة الطابعة هي النظام الشامل للأشياء من حيث إنه ذو وجود ضروري ، ولا يمكن أن يُتصور بغيره لأن شيئا لا يخرج عنه ، كما أن العلِيَّة فيه باطنة ، أي لا يتحكم فيه شيئ خارج عنه ، أما الطبيعة المطبوعة فهي الأوجه الجزئية أو المكونات الموجودة في العالم من حيث هي تعبير جزئي عن الصفات الشاملة للجوهر "[١]

ويقول الباحث التونسي قاسم شعيب في "وحدة الوجود لدي سبينوزا" :" وبحسب اسبينوزا هناك مبدأ واحد يحكم الكون كله ، بمجرّاته وذرّاته ، ولا يستثني الإنسان العاقل والكائنات الحية الأخري ، وهو ينزل من الوحدة إلي الكثرة ومن الكُلِي إلي الجزئي، وتعني فكرة وحدة الوجود أن الله والطبيعة شيئ واحد؛ فالله هو الطبيعة منظورا إليها من جهة الامتداد، والطبيعة هي الله منظورا إليها من جهة الفكر،... ويستخدم سبينوزا مفهوم الطبيعة الطابعة والطبيعة المطبوعة للتمييز بين الطبيعة في كُلِيتها والطبيعة في جزئيتها،

(١) انظر كتاب اسبينوزا / للدكتور فؤاد زكريا – ١١٦ – باختصار ، الناشر: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – بيروت ، الطبعة: الثانية ٢٠١٤م .

فالطبيعة الطابعة وجود ضروري يمثل النظام الشامل للأشياء ،ولا يمكن تصوره من خلال غيره؛ إذ لا شيئ يخرج عنه فهو علة ذاته ، ولا يتحكم فيه شيئ من خارجه ، أما الطبيعة المطبوعة فهي المكونات الجزئية الموجودة في العالم ، التي تعكس صفات الجوهر الشاملة"(١)

نستخلص مما سبق أن سبينوزا يعني بالله الجوهر الأوحد الذي يساوي مجموع الكون ، فالله هو الواحد وما في الكون من كائنات فهي تمثل الأجزاء التي يتألف منها هذا الواحد ، وأنه يعبر عن الله تعالي كموجد لهذا العالم ضرورة أو كنظام شامل للأشيا وحاو لها في داخله بالطبيعة الطابعة ، ويعبر عن الله تعالي كأوجه جزئية أو كائنات مكونة لهذا العالم بالطبيعة المطبوعة ، فكل كائن في هذا العالم هو مظهر للطبيعة الألهية وانعكاس للجوهر الأوحد فيما يري باروخ سبينوزا.

مفهوم العِلِيَة عند سبينوزا:

يري سبينوزا أن الله تعالي علة باطنة لكل شيئ فيقول:" الله علة محايثة – أي باطنة – لا متعدية للأشياء جميعا، كل ما يوجد إنما يوجد في الله ويجب أن يُتصور بالله، وبالتالي فإن الله علة الأشياء الموجودة فيه ، هذه نقطة أولي. ثم إنه لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الله بمعني أنه لا يوجد خارج الله أي شيئ في ذاته ، وهذه هي النقطة الثانية. وعليه فإن الله علة محايثة ، لا متعدية .لجميع الأشياء"(٢)

(١) انظر وحدة الوجود لدي اسبينوزا – ميتافيزيقا اللاميتافيزيقا / للباحث التونسي قاسم شعيب – ٣ – باختصار ، الناشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود – ٢٩ ديسمبر ٢٠١٥م.

(٢) علم الأخلاق/باروخ سبينوزا – ٥٥,٥٤ – .

يتبين من ذلك أن سبينوزا يذهب إلي أن الله تعالي علة محايثة لكل الموجودات ، أي علة باطنة ليست خارجية ،وذلك لأنه لا يوجد شيئ خارج الله كما يزعم هذا الفيلسوف ، ومن ثم فإن العلة باطنة ، فالله تعالي علة باطنة من حيث كونه سببا في وجود الأشياء جميعا ، ومعلول من حيث كونه حاويا لهذه الأشياء وشاملا لها، حيث لا وجود لشيئ خارجه كما يري سبينوزا.

ويقول سبينوزا في موضع آخر موضحا مفهوم العلية :" بما أن بعض الأشياء قد نتجت مباشرة عن الله ، وهي التي تلزم بالضرورة عن طبيعته المطلقة ، وبما أن أشياء أخري قد نتجت عنه عن طريق الأولي – أي عن طريق الأشياء الأولي – ويتعذر مع ذلك وجودها وتصورها بغير الله فإنه يترتب:

١-أن الله هو العلة القريبة إطلاقا للأشياء الناتجة عنه مباشرة ...

٢-إنه لا يصح القول إن الله هو العلة البعيدة للأشياء الجزئية ، اللهم إلا إذا كانت غايتنا التمييز بين هذه الأشياء وتلك التي أنتجتها مباشرة أو بالأحري تلك التي تنتج عن طبيعته المطلقة ، ذلك أننا نعني بالعة البعيدة العلة التي لا تربطها أي صلة بمعلولها ، بيد أن كل ما يوجد إنما يوجد في الله وهو تابع له في وجوده ، بحيث لا يمكنه أن يوجد ولا أن يتصور بدون الله"(١)

والذي يُستخلص من كلام سبينوزا أن هناك أشياء تصدر عن الله مباشرة ،أو تلزم عنه بحسب تعبير سبينوزا وهو علة مباشرة لها ، وهناك أشياء أخري أو معلولات أخري تصدر عن المعلولات أو الأشياء الأولي، وعن الأشياء الثانية تصدر أشياء ثالثة وهكذا إلي مالا نهاية ، كما

(١) انظر المرجع السابق – ٦٢ – باختصار .

يُستخلص من كلامه أن الله تعالي ليس فاعلا بالاختيار ، وإنما تلزم عنه الأشياء ضرورة ، وفي هذا تشبيه بنظرية العقول العشرة عند الفلاسفة.

مفهوم الصفات عند سبينوزا:

يقوا سبينوزا في علم الأخلاق:" إن المقصود بصفات الله هو ما يُعبّر عن ماهية الجوهر الإلهي ، أي ما ينتمي إلي الجوهرفذاك عينه ، أجل، ... بما أن الأزل ينتمي إلي طبيعة الجوهر فإن كل صفة من الصفات تنطوي إذا بالضرورة علي الأزل ، وبالتالي فهي جميعا أزلية،... إن كل صفة من صفاته تعبر عن الوجود إذا فنفس الصفات الإلهية تفسر ماهية الله الأزلية ، تفسر في الوقت ذاته وجوده الأزلي ، بمعني أن الشيئ المُكَوِن لماهية الله هو عينه المكوّن لوجوده ، وبالتالي فإن الماهية والوجود شيئ واحد لا يتغير "[١]

كما يؤكد سبينوزا في كتاب "الأخلاق" علي أن الأشياء الجزية أحوال لصفات الله ، والتي يتألف منها الجوهر الأوحد فيقول:" طالما كانت الأشياء الجزئية لا توجد إلا ضمن صفات الله ، فإن وجودها الموضوعي ، أعني وجود أفكارها متوقف علي وجود فكرة الله اللانهائية ، وإذا كانت الأشياء الجزئية لا توجد ضمن صفات الله فحسب ، بل توجد أيضا في صيغة الدوام، فإن أفكارها تنطوي أيضا علي وجود يسمح بالقول إنها تدوم"[٢].

والذي يُفهم من كلام سبينوزا أن صفة الامتداد هي الأشياء الممتدة التي يتكون منها هذا الكون ، وأنها لا نهائية ، كما أن أفكارها أي وجودها الموضوعي لا نهائية لأنها متوقفة علي فكرة الله اللانهائية.

(١) علم الأخلاق/باروخ سبينوزا – ٥٦,٥٥ – باختصار.

(٢) علم الأخلاق/ باروخ سبينوزا – ٨٩ – .

ويقول بيار – فرنسورا مورو في كتابه"سبينوزا والاسبينوزية" :" وينص– سبينوزا– في القسم الأول من كتاب "الأخلاق" علي أن الله هو الجوهر الأوحد وهو مكون من صفات لا نهاية لها – ومنها ما نعرفه ،الفكر والامتداد – وكل ما يوجد في الكون هو مكون من تعديلات من هذا الجوهر (أي من صفاته)،... أثارت فكرة الصفات نقاشات عديدة عند الشراح ، بعضهم أراد أن يري فيها درجة وجود أدني من الجوهر إلا أن سبينوزا قال بوضوح:إن الصفات تؤلف ماهية الجوهر،وهي ليست رتبة أدني من الجوهر ، إنها الشيء نفسه كالجوهر،... وهذا لا يعني إطلاقا أن الصفات هي مجرد وجهات نظر عن الجوهر، بل هي ما يؤلفه فعليا"[١] .

يبين فرنسوا مورو في هذا النص أن الله عند سبينوزا هو الجوهر الوحيد في هذا الكون ، وأن الصفات التي يتألف منها هذا الجوهر ليست شيئا اعتباريا ، وإنما هي أشياء حقيقية ، فكل ما يوجد في هذا الكون من نفوس جزئية أو أجزاء مادية هو في نظر سبينوزا صفات مكونة ومؤلفة للجوهر الأوحد .

مفهوم صفتي الفكر والامتداد عند سبينوزا:

يقول سبينوزا موضحا مفهومه لصفتي الفكر والامتداد :" الفكر صفة من صفات الله ، وبعبارة أخري فإن الله شيئ مفكر ، الأفكار الجزئية أعني هذه الفكرة أو تلك أحوال تعبر عن طبيعة الله بطريقة معينة ،... والفكر إذا صفة من صفات الله اللانهائية ، وتعبّر هذه الصفة عن ماهية الله الأزلية اللامتناهية ، وبعبارة أخري فإن الله شيئ مفكر، هذه القضية بديهية أيضا

(١) اسبينوزا والاسبينوزية /تأليف بيار فرانسوا مورو – ٨٧ – باختصار ، ترجمة: د. جورج كتورة ، الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت لبنان ، الطبعة: الأولي ٢٠٠٨م .

من جهة كوننا نستطيع تصور كائن مفكر لامتناه ، إذ كلما كان كائن مفكر يستطيع التفكير في أشياء أكثر فإننا نتصوره متضمنا لواقع أو كمال أكثر، وبناء علي ذلك فإن الكائن الذي يستطيع التفكير في عدد لا محدود من الأشياء بعدد لا محدود من الطرق هو حتما كائن لا متناه بفضل التفكير "[١]

والذي يفهم من كلام سبينوزا أنه يعني بالفكر تلك الصفة التي تعبر عن ماهية الله اللامتناهية بوصفه الماهية الحقيقية للإمتداد ، حيث يري سبينوزا أن ماهية الامتداد هي الفكر فكل ما يوجد في فكر الله له مثال في الواقع أو بمعني آخر فإن كل الأشياء الجزئية الموجودة في الطبيعة إنما جاءت علي نفس الشكل والصورة الخاصة بها في فكر الله ، ومن ثم فإن صفة الفكر هي الأصل والأساس لصفة الامتداد.

ويزيد سبينوزا هذه المسألة وضوحا فيقول :" فالجوهر المفكر والجوهر الممتد هما نفس الجوهر ، يدرك تارة تحت صفة من الصفات وطورا تحت صفة أخري ، كما أن الحال الذي ينتمي إلي الامتداد وفكرة هذا الحال هما أيضا نفس الشيئ المعبّر عنه بطريقتين اثنتين ، ويبدوا أن بعض اليهود قد لمحوا ذلك بصورة ضبابية لما سلّموا بأن الله وعقل الله والأشياء التي يعقلها هذا العقل شيئ واحد هوهو ، مثلا الدائرة التي توجد في الطبيعة ، وفكرة الدائرة الموجودة في الله هما شيئ واحد هوهو ، يفسر بصفات مختلفة وهكذا، فسواء تصورنا الطبيعة من جهة صفة الامتداد أو من جهة صفة الفكر أو من جهة أي صفة أخري ، فإننا سنجد نظاما واحدا لا غير وترابطا واحدا للأسباب لا غير ، أي أننا سنجد نفس الأشياء الناتجة بعضها عن بعض "[٢].

(١) انظر علم الأخلاق/باروخ سبينوزا – ٨٤,٨٣ – باختصار .

(٢) انظر علم الأخلاق/ باروخ سبينوزا – ٨٨ – .

ويذكر سبينوزا كذلك أن صفة الفكر هي الأساس الذي تقوم عليه صفة الامتداد فيقول :

" إن نظام الأفكار وترابطها هو عينه نظام الأشياء وترابطها، ... يترتب علي ذلك أن قدرة التفكير عند الله مساوية لقدرته الفعلية علي الفعل، أي أن ما ينتج صوريا عن طبيعة الله اللانهائية ، ينتج أيضا موضوعيا في ذات الله عن فكرة الله ، وفق نفس النظام والترابط"(١)

يتبين من ذلك أن صفة الفكر عند سبينوزا هي الأساس الذي تقوم عليه صفة الامتداد ، فما يوجد في فكر الجوهر أو {الله} من تصورات هو نفسه ما يوجد في الله من موضوعات ، فمثلا إذا كان المثلث في فكر الله عبارة عن شكل هندسي مكون من ثلاثة أضلاع ، فإن موضع المثلث في الطبيعة هو شكل هندسي مكون من ثلاثة أضلاع أيضا ، وكذلك تصور كل الأشياء الجزئية في فكر الله يساوي موضوعاتها في الخارج ، وما فهمه بعض اليهود من أن كل فكرة في الله لها ما يقابلها في الواقع هو ما يُفهم بالفعل من فلسفة سبينوزا لمفهوم صفتي الفكر والامتداد ، فصفة الامتداد تعني الأشياء الجزئية والمفردات التي تتكون منها الطبيعة ، وصفة الفكر هي ما يوجد في عقل الله من تصور لهذه الأشياء الجزئية ، وكلتا الصفتان تكونان ماهية الله عند سبينوزا .

(١) علم الأخلاق /باروخ سبينوزا – ٨٧ – باختصار .

المبحث الثالث: المصادر التي اعتمد عليها سبينوزا في فلسفة وحدة الوجود:

إن فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا لم تكن نتاجا لفكره الخالص أو عملا خالصا لعقله المحض ، وإنما ذهب الباحثون في هذا الشأن إلي أن سبينوزا قد تأثر في تكوين فلسفته عن وحدة الوجود بمؤثرات عدة ، بيانها فيما يلي:

أولا:- الديكارتية:

يقول فريدريك كوبلستون مبينا كيف استوحي سبينوزا فكرة وحدة الوجود من فلسفة ديكارت:" يصعب إنكار أن الديكارتية (المذهب الديكارتي) كانت لها تأثير علي فكر سبينوزا ، وكانت إلي حد ما علي الأقل أداة في تشكيل فلسفته؛ ...، ولكن رغم أنه من المعقول أن نقول إن سبينوزا تأثر بديكارت فإنه لا ينجم عن ذلك مباشرة أنه استمد واحديته من فلسفة ديكارت، ولا أحد يريد أن يزعم بالطبع أنه استمدها من الديكارتية بمعني أنه أخذها أو قبلها من ديكارت؛ لأن ديكارت لم يكن واحديا، ولكن ما هو موضوع جدل هو أن ما فعله سبينوزا هو أنه طوّر المضامين المنطقية للديكارتية في اتجاه واحدي ، لقد رأينا أن ديكارت عرف الجوهر علي نحو حتي إن التعريف لا ينطبق إلا علي الله فقط ، وبالتالي ، ما يمكن فهمه أن بعض المؤرخين يزعمون أن سبينوزا قبل الواحدية تحت تأثير هذا التعريف ، ومع ذلك ، فإنه قد بدا لعدد من الناس الآن أن الإسبينوزية هي نتيجة تصور جديد منطقي ومتسق للديكارتية"[١].

(١) انظر تاريخ الفلسفة /فريدريك كوبلستون – ٤/ ٢٨٦,٢٨٥ – باختصار .

والشاهد من كلام كوبلستون هو أن سبينوزا لم يأخذ فكرة وحدة الوجود عن ديكارت بشكل مباشر ، وذلك لأن ديكارت لم يكن من فلاسفة الوحدة ، ولكنه قد توصل إلي فلسفة الوحدة تحت تأثير فهمه لتعريف الجوهر عند ديكارت ، هذا التعريف الذي ينطبق مفهومه علي الله تعالي فقط ، حيث استطاع سبينوزا أن يستوحي فكرة وحدة الوجود متأثرا بما يعنيه هذا التعريف.

ويقول الأستاذ يوسف كرم :" وقد نعتبر الاعتقاد بوحدة الوجود حدسا شخصيا خَطِرا لسبينوزا أو عرضه عليه ذلك الطبيب الذي علَّمه الفلسفة ، فشرع هو يشيد هيكله بما وجده من مواد عند ديكارت والرواقيين ، ولكن هذا الحدس تأيد عنده بالتفكير في صعوبات الفلسفة الديكارتية ، وبأن في نظره علاجا لها ، هذه الصعوبات ترجع إلي فكرة العلية، فقد وزَّع ديكارت ظواهر الطبيعة إلي طائفتين ، إحداهما مادية والأخري فكرية، ثم عجز عن تفسير العلاقة بين النفس والجسم في الإنسان لتباين هذين الجوهرين، فاعتقد سبينوزا أن "العلة والمعلول يجب أن يكونا من نوع واحد " بحجة أن ما يكون في المعلول دون أن يكون لذاته في العلة يكون صادرا عن العدم،... فلزم عند سبينوزا أن الكل – أي العلة والمعلول – واحد ضروري، وأن الجوهر الأوحد علة باطنة لجميع الظواهر، هي في معلولاتها ومعلولاتها فيها، ومحا العلة المفارقة المتعدية إلي خارج، فمحا ثنائية الله والعالم، وثنائية النفس والجسم "[1].

يبدو من هذا النص أن الأستاذ يوسف كرم مؤيد للرأي الذي يقول إن الديكارتية كان لها أثر في تكوين فلسفة الوحدة لدي سبينوزا ، فمن خلال

(١) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة/ يوسف كرم –١٢٦,١٢٥ – باختصار ، الناشر: مؤسسة هنداوي – يورك هاوس المملكة المتحدة – ٢٠١٢ م .

معالجة سبينوزا لمشكلة العلاقة بين ثنائية النفس والجسم الذي عجز ديكارت عن إيجاد حل لها ، ذهب سبينوزا إلي أن العلة والمعلول يجب أن يكونا شيئا واحدا فرفض القول بثنائية الله والعالم ، وكذلك القول بثنائية النفس والجسم ، ووحد بين العلة والمعلول وجعل الجوهر الأوحد علة باطنة لكل ما في الكون من ظواهر.

ثانيا: الأفلاطونية المحدثة:

يقول الدكتور فؤاد زكريا في معرض شرحه لمحاولات التقريب بين فلسفة سبينوزا وبين الأفلاطونية المحدثة :" ولكن ماذا نقول في تلك المحاولات التي تُبذل للتقريب بين فلسفة سبينوزا ومذهب كالأفلاطونية المحدثة مثلا؟ إنها ليست محاولات عابرة ، بل هي تظهر لدي مجموعة من شُرَّاحه المتعمقين: منهم مثلا"بولوك" ، ومنهم "بروشار" الذي يؤكد وجود قرائن قوية علي تأثر سبينوزا بأفلوطين لأنهما معا يتفقان علي تصور الله علي أنه علة فاعلة ، وقوة تستمد المعلولات الكثيرة من ذاتها وبقدرتها الخاصة ، وبفعلها المستمر تحتفظ الأشياء بوجودها ،... بل ويذهب إلي حد القول:"إن النفوس عند سبينوزا تشارك في الذهن الإلهي ، وتوجد فيه بالفعل لا من حيث هي تكوِن النفس البشرية بوجه عام ، وإنما من حيث هي نفوس فردية تعبّر عن ماهية جسم معين، ومثل هذه النظرية موجودة لدي أفلوطين" [١].

إن الزعم بتأثر سبينوزا بالأفلاطونية المحدثة هو ما ذهب إليه بعض تلاميذ سبينوزا وشراحه ،غير أن الدكتور فؤاد زكريا يري أن القول بتأثر سبينوزا بأفلوطين قول لا دليل عليه فيقول:" مثل هذه المحاولات للتقريب بين

(١) انظر كتاب "سبينوزا"/ للدكتور فؤاد زكريا – ٢٤٩ – باختصار ، الناشر: مؤسسة هنداوي – هاي ستريت – وندسور – المملكة المتحدة ٢٠١٧ م .

فلسفة سبينوزا وبين الأفلاطونية المحدثة هي في رأينا محاولات ساذجة تماما، فمن العبث إضاعة الجهد في تلمس أوجه شبه سطحية بينه وبين مثل هذه التيارات الفكرية، ... هذا إلي أن فكرة مشاركة النفوس الفردية في النفس الكلية كانت عند أفلوطين وسيلة لإثبات خلود النفس بالمعني التقليدي الذي رفضه سبينوزا رفضا صريحا قاطعا، أما الجزم بأن سبينوزا قد تشبَّع بالأفلاطونية المحدثة فقول لا يقوم عليه أي دليل؛ لأنه إذا كان قد تعرَّف علي هذا التراث من خلال من درسهم من مفكري العصور الوسطي ، فليس معني ذلك أنه قد تشبع به ،أو آمن به علي الإطلاق ، بل إن كل الدلائل تدل علي أنه نبذه في نفس اللحظة التي نبذ فيها المبادئ الأساسية لتفكير العصور الوسطي، وإنه لمن الغريب أن يُقرِب شارح – علي أساس سطحي – بين فيلسوف عقلي دقيق مثل سبينوزا وبين مذهب آخر تتغلغل الغائية في كل جوانبه ، ويحتشد بالأفكار اللاعقلية واللاعلمية ، ك " المبادئ أو العلل البذرية" (١)

هذا ما ذهب إليه الدكتور فؤاد زكريا في رفض محاولات التقريب بين فلسفة سبينوزا وبين الأفلاطونية المحدثة ، إذ يري أن القول بتأثر سبينوزا بمذهب أفلوطين قول لا دليل عليه ، ضاربا بما قرره شراح سبينوزا وتلاميذه من وجود شبه بين فلسفته وبين مذهب أفلوطين عرض الحائط ، علما بأنه لا مانع من أن يكون سبينوزا قد أخذ الفكرة بداية من أفلوطين ثم طورها بما يتفق مع رؤيته، وفي هذا يقول الأستاذ يوسف كرم عن وجود فلسفة وحدة الوجود لدي بعض فلاسفة اليونان وعصر النهضة:

"وليست هذه الفكرة بالأولي في بابها فقد سبقه إليها الرواقيون وأفلوطين في التاريخ القديم ، وبعض رجال القرون الوسطي وجيور دانو

(١) انظر المرجع السابق – ٢٥٠ – باختصار .

برونو في عصر النهضة ، ومن المحتمل جدا أن يكون – سبينوزا – استمدها من أحد هذه المصادر ، غير أن الجديد لديه هو أنه يحاول أن يصوغها في قالب رياضي وينظمها نظما عقليا فيسلك سبيل البرهنة الرياضية؛ ليثبت أن الله هو الجوهر الوحيد والحقيقة اللانهائية ، في حين أن مذهب وحدة الوجود عند معتنقيه جميعا لا يكاد يخلو من نزعة روحية وعناصر صوفية"(١)

نستخلص من ذلك أن الأستاذ يوسف كرم والدكتور إبراهيم مدكور يتفقان مع تلاميذ سبينوزا في القول أنه ربما تأثر بمذهب أفلوطين فأخذ عنه فكرة وحدة الوجود ، ثم صاغها بأسلوب رياضي مستبعدا بذلك المنهج الصوفي في الاستدلال علي أن الله تعالي هو الجوهر الوحيد في الكون، هذا بالإضافة إلي احتمال أن يكون سبينوزا قد تأثربالرواقيين في الفلسفة اليونانية ، أو بجيور دانوبرونو في عصر النهضة ، وفي هذا تعارض مع رأي الدكتور فؤاد زكريا الذي يري أن سبينوزا لم يتأثر بأفلوطين حيث لا دليل علي ذلك .

(١) دروس في الفلسفة /يوسف كرم و د. إبراهيم مدكور – ٣٣٧ – .

ثالثا: القبَّالة اليهودية [١]:

يذكر فريدريك كوبلستون أنه من المؤثرات التي ربما أخذ عنها سبينوزا فكرته عن وحدة الوجود هي القبَّالة اليهودية ، فيقول في ذلك :" ويبدوا أن فكرة الله هذه من حيث إنه الموجود اللامتناهي الذي يعبّر عن نفسه في العالم ومع ذلك يضمُّه بداخله قد أُوحي بها علي الأقل إلي سبينوزا عن طريق قراءته للكُتَّاب الذين ينتمون إلي مذهب القبَّالة والمتصوفة اليهود ،... ولو أردنا أن نأخذ تأثير كتابات مذهب القبَّالة المتأخرة بتحفظ شديد ، فإن ثمة دليلا علي الأقل غير التخمين بافتراض أن الكُتَّاب اليهود قد كان لهم تأثير علي فكره وبذلك فإن سبينوزا بعد أن قال إن حالة الامتداد وفكرة حالته شيئ واحد وهما هما ، علي الرغم من أنه يتم التعبير عنهما بطرق مختلفة ، أضاف القول:" يبدوا أن ما أدركه اليهود مؤكد ويقيني ، ولكن بصورة مشوشة؛ لأنهم قالوا إن الله وعقله والأشياء التي يدركها بعقله شيئ واحد هوهو "[٢].

---

(١) القبالة اليهودية: **القبالة اليهودية:** القبَّالة أو القبَّالاه: هي مجموعة التفسيرات والتأويلات الباطنية والصوفية عند اليهود . وكان القبَّاليون يرون أن المعرفة ، أو الغنوص أو العرفان ، توجد في أسفار موسي الخمسة ==وكانوا ينطلقون في تفسيرها من مفهوم غنوصي أفلاطوني مُحْدَس يُفضي إلي معرفة غنوصية أي باطنية ، بأسرار الكون وبنصوص العهد القديم وبالمعني الباطني للتوراة الشفوية – كما يزعمون – [الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والملل والمذاهب والحركات القديمة والمعاصرة/إعداد مكتب التبيان للدراسات العربية وتحقيق التراث – ٢/ ٣١– إشراف علمي: حسن عبد الحفيظ عبد الرحمن أبو الخير– الناشر: دار ابن الجوزي– ٥ درب الاتراك القاهرة – الطبعة الأولي ١٤٣٢هـ– ٢٠١١م]

(٢) انظر تاريخ الفلسفة/ فريدريك كوبلستون – ٤/ ٢٨٨,٢٨٧ – باختصار .

وفي كتاب "دروس في الفلسفة" يقول مؤلفا الكتاب :" ومن جهة أخري يُخَيَّلُ إلينا أن عقيدة التوحيد الإسرائلية التي اعتنقها – سبينوزا – منذ صغره هي التي قادته إليه؛ – أي إلي القول بوحدة الوجود – فإن الموحد إذا أفرد الله بكل شيئ لم يدع للطبيعة مكانا بجانبه ، والقول بالوحدانية المطلقة يؤدي – غالبا – إلي فكرة وحدة الوجود ، وأوضح مثال علي ذلك ما نراه في مدرسة الإسكندرية،... وإذن تكون فلسفة سبينوزا في هذا الموضع – كما هي في مواضع أخري – ثمرة تربيته الأولي"(١) .

يُستخلص مما سبق أنه لا يُسبعد أن يكون سبينوزا قد تاثر بالكُتَّاب المنتمين إلي القَبَّالة اليهودية فأخذ عنهم فكرة الوحدة بين الله والطبيعة ، كما أن اعتناقه منذ صغره لعقيد التوحيد الإسرائلية والتي تقوم علي الوحدانية المطلقة ربما أدي به في النهاية إلي القول بوحدة الوجود.

رابعا: فلاسفة عصر النهضة:

من المؤثرات الأخري التي يري بعض العلماء والباحثين أن تأثر سبينوزا بها وارد بشدة هي فلسفة عصر النهضة ، يقول فريدريك كوبلستون:

" ومصدر محتمل آخر من مصادر التأثير علي سبينوزا هو دراسته لفلاسفة عصر النهضة الذين مالوا إلي وحدة الوجود ، صحيح أن كتابات جيور دانو برونو لم تظهر في القائمة التي أُعدت للأعمال التي احتوتها مكتبة سبينوزا ، ولكن يبدوا أن فقرات معينة في مؤَلَّفه " رسالة مختصرة " تبين أنه عرف فلسفة برونو بالفعل ، وتأثر بها في سنوات مبكرة وفضلا عن ذلك فإن برونو استخدم التمييز بين " الطبيعة الطابعة" و " الطبيعة المطبوعة" وهو خاصية هامة من خصائص فلسفة سبينوزا، وربما يصعب أن نحسم بأي طريقة محددة الخلاف الخاص بالدرجات النسبية للتأثير

(١) دروس في الفلسفة/ يوسف كرم والدكتور إبراهيم مدكور – ٣٣٨,٣٣٧ – باختصار.

الذي كان علي فكر سبينوزا عن طريق دراسته للكتَّاب اليهود ، ودراسته لفلاسفة الطبيعة في عصر النهضة مثل برونو، لكن يمكن أن يُقال إنه مال نحو توحيد الله بالطبيعة عن طريق خطي دراسة كليهما"[١] .

في هذا النص يذهب كوبلستون إلي أن تأثر سبينوزا بفلاسفة عصر النهضة أمر وارد بشدة وذلك أنه اطلع علي فلسفة برونو وكان من فلاسفة عصر النهضة القائلين بوحد الوجود، ومن مظاهر تأثره بفلسفة برونو هو استخدامه نفس مصطلحاته كمصطلح الطبيعة الطابعة ومصطلح الطبيعة المطبوعة ، كما ذهب كوبلستون إلي أنه من الصعب تحديد نسبة تأثر سبينوزا بفلاسفة عصر النهضة ، ونسبة تأثرة بكُتَّاب القبَّالة اليهودية ، والظاهر كما يري كوبلستون أنه تأثر بالإثنين في التوحيد بين الله والطبيعة .

وخلاصة ما سبق أن فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا وكما ذهب كثير من الباحثين لم تكن نتاجا خالصا لفكره ، وإنما تكونت لديه هذه الفلسفة نظرا لاطلاعة علي الأفكار والفلسفات السابقة والتي تتبني فكرة وحدة الوجود كفلسفة أفلوطين ، وفلسفة برونو ، والقبَّالة اليهودية ، فاسبينوزا وإن كان كما يري بعض الباحثين قد طوَّر في فلسفة الوحدة فاستبعد منها المنهج الصوفي، واستخدم بدلا منه المنهج الرياضي إلا أن ذلك لا يمنع من احتمال تأثره بما سبقه وما عاصره من فلسفات وأفكار.

(١) انظر تاريخ الفلسفة/ فريدريك كوبلستون – ٤/ ٢٨٨,٢٨٩ – باختصار .

الفصل الثالث: تداعيات فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا علي الدين والأخلاق:

إن فلسفة وحدة الوجود والاعتقاد بأن الله تعالي هو الخلق ،وأن الخلق هو الله من الفلسفات التي لها تداعيات خطيرة وآثار هدَّامة علي الدين والأخلاق ، كما أنها فلسفة مردودة علي أصحابها نظرا لكونها مناقضة للعقل ومخالفة للمنطق ، ومن ثم فإن هذا الفصل ينقسم إلي ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الدين.

المبحث الثاني: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الأخلاق.

المبحث الثالث: الدليل العقلي علي بطلان القول بوحدة الوجود.

المبحث الأول: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الدين:

لقد أثرت فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا علي الدين تأثيرا سلبيا في نواح متعددة بيانها فيما يلي:

أولا: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الميتافيزيقا – عالم ما وراء الطبيعة – .

إن اعتقاد سبينوزا بأن الله تعالي مساو للطبيعة ، علي معني أن الله والطبيعة عالم واحد وليس وراء ذلك عالم آخر يؤدي إلي إنكار عالم الغيب أو عالم ما وراء الطبيعة – الميتافيزيقا – ويفتح الباب علي مصراعيه أمام كل ملحد ، يقول جون لويس :

" كان سبينوزا أول فيلسوف عمل بشكل منهجي وفي كافة مجالات الفكر علي هدم النظرة الغائية إلي العالم ، وهي النظرة التي تصوره خاضعا لاتجاهات وغايات علوية أو روحانية ، وكذلك نراه قد عارض النظرية القائلة بوجود عالم آخر أعلي من هذا العالم قائم وراء الظواهر، لم يكن هناك في نظره إلا عالم واحد، فقد نبذ فكرة التعالي نبذا تاما ، ومن ثم رأيناه يضع الطبيعة نفسها في كمالها وشمولها بما في ذلك الإنسان محل عالم العقل والمادة"(١).

وبقول الدكتور فؤاد زكريا في إطار عرضه لموقف سبينوزا من الميتافيزيقا:

" ينفي سبينوزا عن فكرة الله أي وصف له صلة بفكرة العلّيَّة الخالقة ، ففكرة الخلق ذاتها هي في نظره تشبيه للقوي الإلهية بقوي الإنسان حين "يُحدث" شيئا أو يكون علة له ، فالطبيعة عنده ليست في حاجة إلي علة ،

(١) مدخل إلي الفلسفة/ جون لويس – ٩٩ – ، ترجمة: أنور عبد الملك ، الناشر: دار الحقيقة للطباعة والنشر – بيروت ، الطبعة: الثالثة ١٩٧٨ م .

بل إن سبينوزا يحاول أن ينزع عن أذهان الناس ميلهم إلي تطبيق العلِيَّة علي كل شيئ ، حتي علي الكون في مجموعه؛ ... فهو هنا يدعو إلي التوقف عن البحث عن عِلّة للطبيعة بأسرها ، ويحاول تعويد الأذهان علي قبول فكرة الطبيعة الموجودة منذ الأزل ، غير الناتجة عن علّة ، ولو تحقق له هذا الغرض ، لزال بذلك أقوي سبب يؤدي بالناس إلي افتراض موجود خارج عن الطبيعة عال عليها، يكون علة لها؛ فالعلِيّة داخل المجموع علِيّة باطنة ، ... ويبدوا أن سبينوزا قد طبق مبدأ الاقتصاد في الفكر علي مسألة العليَّة الكونية هذه فأدي به ذلك التطبيق إلي الوقوف في سلسلة التعليلات عند العالم في مجموعة؛ ذلك لأن افتراض كائن آخر "بعد" العالم للتخلص من مشكلة العليَّة داخل هذا العالم سيؤدي حتما إلي ظهور نفس المشكلات التي حاولنا بافتراضنا له أن نتخلص منها "[١].

ويقول قاسم شعيب :" كانت فلسفة سبينوزا ميتافيزيقا دون إله ، وضرورة شاملة دون حرية ، وحب دون عاطفة (...) فهو يرفض ثنائية الخالق والمخلوق الدينية ، والطبيعة عنده هي الإله ، وهي علة ذاتها ، وهو يري أن الخلاص يكمن في إدراك النظام الكلي للعالم ، وأن الحب الحقيقي هو حب المعرفة"[٢]

نستخلص مما سبق أن فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا تؤدي إلي رفض الميتافيزيقا ، وإنكار أي عالَم آخر وراء الطبيعة ، فعنده أن الطبيعة أزلية لم سبقها عدم ومن ثم فإنها لا تحتاج إلي من يوجدها فهي موجودة أزلا، وهذا يبين أن سبينوزا يرفض القول بوجود العلّة الغائية للعالم والتي تربطه بعالم آخر متعال عليه ومتحكم فيه وهو عالم ما وراء الطبيعة ، وفي

(١) انظر كتاب سبينوزا / للدكتور فؤاد زكريا – ١٣٨,١٣٣ – باختصار .

(٢) وحدة الوجود لدي سبينوزا – ميتافيزيقا اللا ميتافيزيقا – ١٤ – باختصار .

هذا إنكار لوجود إله خالق للكون مدبر له ، وذلك لأن الله والكون شيئ واحد كما يري سبينوزا ومحال أن يخلق الشيئ نفسه.

ثانيا: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الإيمان باليوم الآخر:

إن الإيمان باليوم الآخر وما يكون فيه من أحداث ومشاهد كالبعث والحشر والحساب والجنة والنار وما إلي ذلك من المشاهد الأخري التي وردت في القرآن الكريم وأخبرت بها السنة النبوية الشريفة من أركان الإيمان، ومن الجدير بالذكر أن باروخ سبينوزا فيلسوف يهودي أي صاحب دين سماوي ، هو اليهودية ، والعقائد في الأديان السماوية واحدة لم تتغير في اليهودية أو المسيحية أو الإسلام ، ومن ثم فإن الإيمان باليوم الآخر من العقائد الموجودة في اليهودية والتي من المفروض أن يكون سبينوزا قد عرفها وآمن بها.

يقول جل وعلا مبينا أن الإيمان باليوم الآخر من العقائد التي جاء بها موسي عليه السلام:{وقال موسي إني عُذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب}(١).

ويقول تعالي مخاطبا موسي عليه السلام: {إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتُجزي كل نفس بما تسعي فلا يصُدَّنَّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردي}(٢).

ويقول سبحانه مبينا حال السحرة حين تركوا فرعون وآمنوا بإله موسي عليه السلام :{ قالوا لن نؤثرك علي ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا

(١) سورة غافر (آية:٢٧)

(٢) سورة طه (الآيات ١٤ – ١٦)

عليه من السحر والله خير وأبقي إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحي ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلي جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكي}[1].

تدل هذه الآيات علي أن الإيمان باليوم الآخروما فيه من بعث وحساب وجنة ونار من العقائد التي جاء بها موسي عليه السلام ، ومعلوم أن موسي أرسل إلي اليهود ، وسبينوزا يهودي ويُفترض به أن يكون قد علم بأن الإيمان باليوم الآخر من العقائد اليهودية الذي يتوجب عليه أن يؤمن بها.

ومع أن الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان في اليهودية كما أنه ركن من أركان الإيمان في الإسلام ، إلا أنه يلزم عن فلسفة وحدة الوجود إنكار اليوم الآخر، فلا حاجة إلي بعث وحساب مع الاعتقاد بأن الكون هو الله والله هو الكون.

ثالثا: استلزام فلسفة وحدة الوجود قدم العالم :

من الآثار السلبية والتداعيات الخطيرة لفلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا هو اعتقاده بقدم العالم وأزليته ، فإن ادعاءه بأن الله تعالي والطبيعة شيئ واحد يؤدي بداهة إلي القول بقدم العالم ،وذلك لأن الطبيعة عنده ليست مخلوقة مثلها مثل الله تعالي سواء بسواء.

يقول سبينوزا :" ليس من شيئ في الطبيعة حادث ، بل كل ما فيها محدد بضرورة الطبيعة الإلهية كي يُوجَد ويُنْتِج معلولا ما بنحو ما ، كل ما يوجد إنما يوجد في الله ، ولا يمكن القول إن الله حادث ، لأن الله يوجد ضرورة لا جوازا ، وبالنسبة إلي أحوال طبيعة الله ، فهي تُنْتَج عن هذه

(١) سورة طه (الآيات ٧٢-٧٦)

الطبيعة ضرورة أيضا ، لا عن طريق الجواز ،... وعلاوة علي ذلك ، ليس الله علة هذه الأحوال بما هي موجودة فحسب بل هو علتها أيضا من جهة كونها محددة لإنتاج معلول ما وإذا كانت هذه الأحوال غير محددة من قبل الله فإنه يصبح من المستحيل لا من باب الجواز أن تحدد نفسها بنفسها،أما إذا كانت علي العكس من ذلك محددة من قبل الله فإنه من المستحيل وليس من الجائز أن تجعل نفسها غير محددة ، وكل شيئ محدد إذا بضرورة الطبيعة الإلهية لا فقط كي يُوَجد، بل أيضا كي يُنْتِج معلولا ما بوجه ما ، ولا وجود لشيئ حادث"[١].

نستخلص من هذا النص ما يلي :

١-أن سبينوزا يقول بقدم العالم ، لأنه يري أن العالم كله موجود في الله ولا وجود لشيئ خارج الله ، ولا يمكن القول بأن الله حادث وإذا فلا يمكن القول بأن العالم حادث ، ومن ثم فالعالم قديم.

٢-كما نستخلص أن سبينوزا يقرر أن وجود العالم ضرورة ليس اختيارا من الله تعالي ، ولا جوازا .

٣-أن الله تعالي علة لما يصدر عنه مباشرة ، وعلة لما يصدر عن الأحوال الصادرة عنه ، ومن ثم فإن سبينوزا يجعل الله تعالي ليس علة لإيجاد معلولات فحسب ،بل هو علة لإيجاد معلولات تكون علا لمعلولات أخري ، فما يصدر عن الله من أحوال أو أشياء أولي يصدر عنها أي عن الأشياء الأولي أشياء ثانية ، وهذه الأشياء الثانية يصدر عنها أشياء ثالثة ، وهكذا إلي ما لا نهاية.

ولا عجب أن يقول سبينوزا بقدم العالم ، فهو فيلسوف علي كل حال شأنه شأن جمهور الفلاسفة القائلين بقدم العالم.

---

(١) انظر علم الأخلاق /باروخ سبينوزا – ٦٣ – باختصار .

وفي إطارالرد علي قول سبينوزا بقدم العالم وبيان بطلانه ، نعرض بعض الشبه التي اعتمد عليها الفلاسفة في القول بهذا القدم ثم نبين فسادها عقلا.

يقول ابن ميثم البحراني في معرض طرحه لشبه الفلاسفة علي قدم العالم والرد عليها مقتصرين علي الشبهة الأولي نظرا لكونها الأكثر أهمية لدي الفلاسفة في هذا الباب:

"الشبه الأولي: وهي العمدة الكبري لهم ، قالوا: كل ما لابد منه في مُؤَثِرِيَّة الله تعالي في وجود العالم إما أن يكون حاصلا في الأزل ، أو لا يكون فإن كان حاصلا في الأزل لزم أن لا يتخلّف العالم عن الله تعالي ؛ إذ لو تخلّف لكان وجوده بعد ذلك إما أن يكون لأمر فلا يكون تمام ما به التأثير حاصلا في الأزل ، وقد فُرض كذلك ، هذا خُلْف ، وإن كان لا لأمر لزم الترجيح بلا مرجح . وأما إن لم يكن كل ما لابد منه في المؤثرية حاصلا في الأزل ثم حصل بعد ذلك ، فحصوله إن كان لا لأمر لزم الترجيح بلا مرجح وهو محال ، أو لأمر فيكون الكلام فيه كما في الأول ، ويلزم التسلسل أو الدور وهما محالان ،...،

والجواب عن [الشبهة] : أنَّا نختار القسم الثاني ، وهو أن تمام ما به التأثير لم يكن حاصلا في الأزل . قوله:" "حدوث ذلك المرجح يستدعي مرجحا آخر ويلزم التسلسل" ، قلنا: لا نسلم لزوم التسلسل ، وَلِمَ لا يجوز أن يكون ذلك المرجح هو مصلحة وحكمة خَفِيَّة علم الله تعالي اشتمال الوقت الذي وُجد فيه العالم عليها لذاته؟ وتلك المصلحة وإن كانت حادثة إلا أن حدوثها كان موقوفا علي حدوث حاملها وهو الوقت المشتمل عليها وتابعا له، والوقت وإن كان حادثا إلا أن مرجح وجوده هو غايته المشتمل عليها –

أعنـي المصـلحة – وحينئـذ تنقطـع المطالبـة فـي المرجحـات ، فينقطـع التسلسل"[١]

ويقول الشيخ محمد السفاريني عارضا أهم حجة للفلاسفة علي قدم العالم ، ومبينا بطلانها بالعقل والمشاهدة :

" وأصل قول هؤلاء – أي الفلاسفة – أن المبدع للعالم علة تامة تستلزم معلولها فلا يجوز أن يتأخر عنها معلولها ، وأعظم حججهم قولهم إن جميع الأمور المعتبرة في كونه فاعلا إن كانت موجودة في الأزل لزم وجود المفعول في الأزل لأن العلة التامة لا يتأخر عنها معلولها فإنه لو تأخر لم تكن جميع شروط الفعل وُجدت في الأزل ، فإنا لا نعني بالعلة التامة إلا ما تستلزم المعلول فإذا قُدِرَ أنه تخلّف عنها المعلول لم تكن تامة ، وإن لم تكن العلة التامة التي هي جميع الأمور المعتبرة في الفعل وهي المقتضي التام لوجود الفعل وهي جميع شروط الفعل التي يلزم من وجودها وجود الفعل – وإن لم تكن جميعها في الأزل فلابد إذا وُجد المفعول بعد ذلك من تجدد سبب حادث وإلا لزم ترجيح أحد طرفي الممكن بلا مرجح ، وإذا كان هناك سبب حادث فالقول في حدوثه كالقول في الحادث الأول ويلزم التسلسل ، فالقول بانتفاء العلة التامة المستلزمة للمفعول يوجب إما التسلسل وإما الترجيح بلا مرجح ،...، وقولهم باطل من وجوه ... – منها أن يقال لهم –: حدوث حادث بعد حادث بلا نهاية إما أن يكون ممكنا في العقل أو ممتنعا فإن كان ممتنعا لزم أن الحوادث جميعها لها أول كما يقول أهل الحق وبطل

(١) انظر قواعد المرام في علم الكلام/ كمال الدين ميثم بن علي بن ميثم البحراني المتوفَّي أواخر القرن السابع ، – ١٦٣,١٦٦ – باختصار ، تحقيق: أنمار معاذ المظَفّر ، الناشر: مكتبة العتبة الحسينية المقدسة – كربلاء العراق ، الطبعة: الأولي ١٤٣٤ – ٢٠١٣ .

قولهم بقدم حركات الافلاك ، وإن كان ممكنا أمكن أن يكون حدوث ما أحدثه الله تعالي كالسموات والأرض موقوفا علي حوادث قبل ذلك كما تقولون أنتم فيما يحدث في هذا العالم من الحيوان والنبات والمعادن والمطر والسحاب وغير ذلك فيلزم فساد حجتكم علي التقديرين"[١]

والذي يخلص إليه الباحث مما سبق أن اعتماد الفلاسفة علي القول بقدم العالم كان مبنيًا علي (العلة التامة) ، التي تستجمع كل الشروط اللازمة في كونه تعالي فاعلا ، والتي تستلزم وجود المفعول في الأزل ، فكما أن العلة التامة موجودة في الأزل فلابد من وجود المعلول في الأزل ، وذلك للمبدأ المعروف عند الفلاسفة وهو التلازم بين العلة والمعلول ، وبناء علي أن الله تعالي موجود في الأزل فلابد أن يكون العالم قد وُجد في الأزل ضرورة التلاوم بين العلة والمعلول ، لأنه إذا تأخر زمن وجود المعلول عن زمن وجود العلة لزم تجدد سبب حادث لإيجاد هذا المعلول ، ومن ثمّ فكل معلول يُوجد فلابد له من سبب حادث لوجوده وهذا يؤدي إلي التسلسل وهو باطل ، فيبطل ما أدي إليه وهو تخلّف المعلول عن العلة التامة ويثبت قدم العالم ، هذه فحوي ما احتج به الفلاسفة في القول بقدم العالم ، كما استخلص الباحث مما سبق أن حجة الفلاسفة علي قدم العالم حجة واهية لما يلي:

(١) انظر لوامع الأنوار البهيَّة وسواطع الأسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية / للشيخ محمد بن أحمد السفاريني الأثري الحنبلي ، – ١/ ٢٨٢,٢٨١ – باختصار ، وتصرف ، الناشر: مؤسسة الخافقين ومكتبتها – محمد مفيد الخيمي – دمشق – طريق الجامعة ، الطبعة: الثانية ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢ م .

_ أن حدوث حادث بعد آخر إما أن يكون ممتنعا عقلا أو ممكنا ، فإن كان ممتنعا فلماذا حدث ؟ فالمشاهدة تقطع بحدوث حادث تلو الآخر بلا انقطاع ، وإن كان ممكنا فقد بطل قولكم بالعلة التامة.

_ أنه لايلزم التسلسل علي تأخر وجود العالم عن وجود الله تعالي ، لأنه وإن كان الله تعالي قادرا علي خلق العالم في الأزل إلا أنه سبحانه أراد خلقه في الوقت الذي أراده لحكمة يعلمها ، فتكون هذه الحكمة هي التي رجحت خلق العالم في الوقت الذي وُجد فيه، ومن ثمّ فلا يكون خلق العالم متأخرا عن وجود الله تعالي ترجيحا بل مرجح.

رابعا: استلزام فلسفة وحدة الوجود تأليه الكائنات الطبيعية:

إن القول بالمساواة بين الله تعالي والطبيعة كما زعم سبينوزا من العقائد الفاسدة التي يلزم عنها تأليه الكائنات الطبيعية ، يقول سبينوزا في هذا الصدد:

" لا يمكن أن يوجد أي جوهر خارج الله ولا أن يتصور ،... يترتب علي ذلك بوضوح أن الله أحد، أي أنه لا يوجد في الطبيعة سوي جوهر واحد وأن هذا الجوهر غير متناه إطلاقا ،... ويتريب : أن الشيئ المفكر والشيئ الممتد هما إما صفتان إلهيتان أو عرضان لصفتين إلهيتين"(١).

يتبين من هذا أنه لا وجود لغير الله تعالي ، وأن ما نراه في الطبيعة من أشياء أو كائنات كالإنسا والحيوان وغيرهما فهي تُسمّي عند سبينوزا بصفة الامتداد التي يتصف بها الجوهر الأوحد "الله" ، ومن ثم فهي تجليات أو مظاهر إلهية ، مما يترتب علي ذلك أن يكون الإنسان والحيوان وغيرهما من الكائنات الأخري آلهة أو كائنات مؤلهة كما يري فيلسوف الوحدة.

(١) علم الأخلاق/ باروخ سبينوزا – ٤٥ – باختصار .

المبحث الثاني: تداعيات فلسفة وحدة الوجود علي الأخلاق:

كما كان لفلسفة وحدة الوجود تداعيات خطيرة علي الدين ، فإن لها كذلك آثار سلبية علي الأخلاق ، وقد ذهب العلماء والباحثون إلي أنه من أخطر الآثار التي نتجت عن فلسفة وحدة الوجود عند سبينوزا هو ربطه بين الإنفعالات الإنسانية وبين قوانين الطبيعة ، مما أدي به في النهاية إلي القول بالجبر، والضرورة، وتأثير وحدة الوجود عند سبينوزا علي الأخلاق يبرز في النقاط التالية:

١-القول بالجبر ونفي الاختيار:

يقول سبينوزا في علم الأخلاق مقررا أن الإنسان ليس له سلطان علي أفعاله :" إن الذين كتبوا عن الانفعالات وعن السلوك الإنساني في الحياة يبدو كأنهم يعالجون أمورا خارجة عن الطبيعة ، لا أمورا تسير وفقا لقوانين الطبيعة العامة ، بل يبدو أنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما لو كان دولة داخل دولة . وفعلا، إنهم يعتقدون أن الإنسان يخل بنظلم الطبيعة أكثر مما ينساق له ، وأن له سلطانا مطلقا علي أفعاله الخاصة ولا يخضع إلا لنفسه ، وعلي هذا تراهم يبحثون عن سبب عجز الإنسان وتقلبه ، لا في قوة الطبيعة الكلية ، وإنما في عيب من عيوب الطبيعة البشرية ، لذلك تجدهم يبكونها ويهزؤون بها ويمقتونها ،...، ويُعد من صنف الآلهة ذلك الذي يقدر علي لوم النفس البشرية العاجزة بأكثر فصاحة وبراعة"(١)

يبدو من النص السابق أن سبينوزا ينكر علي الذين يرون الإنسان حرا مختارا في أفعاله وأنه بمثابة دولة داخل الدولة بما له من سلطان وإرادة علي أفعاله الخاصة ، فهو يرفض أن يعتقد الإنسان أنه حر في أفعاله ، ويري أنه منفعل ومتأثر بالطبيعة وليس مؤثرا فيها ، وهذا الموقف يبين

(١) انظر علم الأخلاق/ باروخ سبينوزا – ١٤٥ – باختصار

حقيقة ما يراه سبينوزا بصدد الأفعال الإنسانية إذ يري أن الإنسان بما أنه خاضع لقوانين الطبيعة فهو مجبور لا إرادة له..

يقول الدكتور فؤاد زكريا : " أهم طابع يمثل النظرية الأخلاقية عند سبينوزا هو القول إن الإنسان لا يقف بمعزل عن الطبيعة وقوانينها؛فاسبينوزا قد انتقد بشدة أولئك الذين تصوروا الإنسان علي أنه "يقف من الطبيعة كأنه دولة داخل الدولة ، ويظنون (...) أن له سلطانا مطلقا علي أفعاله ، وأن شيئا لا يتحكم فيه إلا ذاته" فنقطة البداية الأساسية في النظرية الأخلاقية هي الإدراك العلمي للارتباط بين الإنسان وبين الطبيعة بوجه عام؛ ومن ثم تأكيد سيادة فكرة الضرورة في مجال الإنسان بدوره ، "فمن المحال ألا يكون الإنسان جزءا من الطبيعة ، أو يكون قادرا علي ألا يتأثر إلا بالتغيرات التي يمكن فهمها من خلال طبيعته بوصفها العلة الكافية لها" ، وأهم ما استحدثه سبينوزا نتيجة لهذه النظرة إلي الإنسان هو أنه نزع عن عالم الإنسان الباطن قناع الصوفية والغموض الذي كان السابقون عليه يُخفونه به ، وأدرجه ضمن الظواهر العلمية الخاضعة للبحث والتحليل ، وبحثه – كما قال في مقدمة الباب الثالث من الأخلاق – "كما تُبحث الخطوط والمسطحات والأجسام" وهكذا أكد أن الهدف من علم الأخلاق ليس الوعظ والإرشاد ، وإنما هو الدراسة والبحث والفهم ، فنقل بذلك الأخلاق من مجال " ما ينبغي أن يكون" إلي مجال " ما هو كائن" ، وأكد أن مهمته بوصفه باحثا أخلاقيا ليست أن يحتقر أو ينتقد ، وإنما أن يفهم الطبيعة البشرية علي ما هي عليه ، وهكذا تجاوز سبينوزا الحواجز بين الواقع والمثل الأعلي ، وبين ما هو فعلي وما هو معياري مثالي ، وأنكر الخير المطلق ، وبالتالي " عالم الغايات" الذي تركزت فيه الأخلاق المثالية بأسرها"[1].

(١) انظر كتاب سبينوزا /للدكتور فؤاد زكريا – ٢٠٣ – باختصار ، نقلا عن مقدمة الباب الثالث من " الأخلاق" لباروخ سبينوزا.

والذي يخلص إليه الباحث من النص السابق هو أن سبينوزا يعتقد أن الإنسان ليس حرا في أفعاله ، وأنه كَمُكَوِن من مكونات الطبيعة وجزء من أجزائها فهو خاضع لقوانينها ومتأثر بها حيث لا يمكنه أن يستقل بأفعاله ، أو أن يكون علة لها ، ومن ثم فإن الإنسان فيما يري سبينوزا مجبور في أفعاله ، فاسبينوزا بوصفه موحدا بين الله تعالي وبين الطبيعة ومساويا بينهما ، يري أن كل شيئ يحدث ضرورة فليس هناك اختيار ، أو حرية ، وإنما يخضع الكل لقوانين الطبيعة حيث لا يمكن الخروج عنها ، وإذا كان سبينوزا يري أن الله تعالي أو الجوهر الأوحد ليس حرا في أفعاله وإنما يفعل بالضرورة ، فكيف يعتقد بحرية البشر ؟

ويقول سبينوزا :" النفس حال معين ومحدد من أحوال الفكر وبالتالي فإنه يتعذر عليها أن تكون علة حرة ، بمعني أنه يتعذر أن يكون لديها قدرة مطلقة علي أن تريد أو لا تريد ، بل ينبغي أن يحدد إرادتها لهذا الشيئ أو ذاك سبب ما ، وهذا السبب يحدده أيضا سبب آخر ، وهذا السبب الآخريحدده بدوره سبب آخر ...إلخ."[١] ، يتبين من ذلك أن سبينوزا لا يؤمن بأن لدي الإنسان إرادة حرة ، ومن ثم فهو عاجز عن الإرادة والاختيار ، وليس له سلطة مطلقة علي إرادته أفعاله ، مما يلزم عنه الجبر صراحة .

٢-إنكار الخير المطلق وإخراج الأخلاق عن جوهرها الحقيقي كعلم معياري واعتبارها أمرا نسبيا :

جاء في (بحث فلسفة الدين عند سبينوزا في ضوء المنهج الديكارتي) ما يلي:" يتعامل سبينوزا مع هذين الموضوعين الكلاسيكيين– الخير والشر – تعاملا خاصا به ويربط بينهما ربطا منطقيا ، فالخير عند سبينوزا هو في ذاته شيئ نسبي وكذلك الشر، إن الخير والشر يُقالان بمعني نسبي حتي إن

(١) علم الأخلاق عند سبينوزا – ١٣٥ – .

شيئا يُقال إنه حسن أو قبيح حسب الزاوية التي نعتبره منها ، فنحن نسمي خيرا ما نعرف تمام المعرفة أنه نافع لنا ، أما هو في ذاته فليس خيرا ولا شرا. فنحن لا نسعي إلي شيئ ولا نريده ولا نرغب فيه لكوننا نعتقده خيرا ، بل نحن علي العكس من ذلك، نعتبره خيرا لكوننا نسعي إليه ونريده ونشتهيه ، ولذلك فليس هناك شر في ذاته ، ولكن هناك ما هو سيئ بالنسبة لنا ، فكل ما هو متوافق معنا ونرغب فيه خير بالنسبة لنا ، وكل موضوع يسيئ إلينا ، حتي لو كان متوافقا مع أغراض الآخرين يكون بالنسبة إلينا شرا، وهكذا يحكم كل امرئ علي الأشياء وفقا لانفعاله الخاص ، مُقَدّرا أيها جيد وأيها ردئ ، أيها أفضل وأيها أسوأ"(١)

ويقول الأستاذ يوسف كرم مبينا معتقد سبينوزا في الجبر ونفي الإرادة:" ولما كانت الأشياء جميعا مُعَيَّنة بما في الطبيعة الإلهية من ضرورة الوجود والفعل ، لم يكن في الطبيعة ممكنات ، ولم يكن في النفس إرادة حرة، ولكن النفس مُعَيَّنة إلي فعل كذا أو كذا بعلة هي أيضا معينة بعلة وهكذا إلي غير نهاية ، ليس الإنسان مملكة في مملكة ، فالشعور بالحرية خطأ،... وإنما يعتقد الناس أنهم أحرار لأنهم يجهلون العلل التي تدفعهم إلي أفعالهم ، كما يظن الطفل الخائف أنه حر في أن يهرب ، ويظن السكران أنه يصدر عن حرية تامة فإذا ما ثاب إلي رشده عرف خطأه ، ولو كان الحجر يفكر لاعتقد أنه إنما يسقط إلي الأرض بإرادة حرة ، وعلي ذلك فالغضب من الأشرار سذاجة ،...، إن الطبيعة خاضعة لقوانين كلية ، وأننا جزء من هذه الطبيعة ، فنهتدي بافكارنا المطابقة ونصير فاعلين بعد أن كنا

(١) انظر فلسفة الدين عند سبينوزا في ضوء المنهج الديكارتي/ إعداد الدكتور غيضان السيد علي مدرس الفلسفة الحديثة بكلية الآداب – جامعة بني سويف – ١١٨٠ – مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة العدد الواحد والستون – أغسطس ٢٠١٧ .

منفعلين ؛ ذلك أننا حالما ندرك بالعقل أن أفراحنا وأحزاننا نتائج لقوانين الطبيعة ، نكف عن محبة الاشياء وبغضها ، وعن استشعار الحزن والخوف والرجاء واليأس والغضب والسخرية "[١]

من خلال النصوص السابقة يستخلص الباحث عدة نقاط :

١_ أن سبينوزا لم ينظر إلي علم الأخلاق علي أنه علم معياري مقوم للسلوك ، وإنما تعامل مع الأخلاق باعتبارها نظرية قابلة للبحث والنقد، وبناء علي ذلك يكون قد أخرج الأخلاق عن جوهرها الحقيقي ، مما يترتب عليه تعطيل الأخلاق عن القيام بدورها .

٢_ أن سبينوزا باعتباره الأخلاق علما نسبيا يكون قد أنكر الخير المطلق ، الأمر الذي يترتب عليه إنكار الغايات ، وجعل الإنسان يعيش في الدنيا بلا غاية أو هدف .

٣_ أن الإنسان فيما يري سبينوزا جزء من الطبيعة ، والطبيعة خاضعة لقوانين كلية وما يحدث للإنسان من فعل أو ترك أو شعور إنما هو نتيجة للقوانين الكلية التي تخضع لها الطبيعة ، ومن ثم فلا حرية للإنسان في شئ.

٤ _ أن القول بالجبر يستلزم عبثية التكليف ، وتكذيب القرآن والأنبياء – عليهم السلام – كما يستلزم القول بأن الله ظالم لعباده تعالي الله عن ذلك علوا كبيرا.

(١) انظر تاريخ الفلسفة الحديثة / يوسف كرم – ٣/ ١٢١,١٢٠ – باختصار .نقلا عن الرسالة اللاهوتية السياسية لباروخ سبينوزا ف ١٦ .

المبحث الثالث : الدليل العقلي علي بطلان القول بوحدة الوجود:

إن الدليل العقلي علي بطلان القول بوحدة الوجود ، يقوم علي استحالة وجود كائن كلي أو موجود مطلق خارج الذهن.

يقول القاضي علي بن أبي العز الدمشقي مبينا أن وجود الله تعالي مختص به سبحانه لا يشاركه فيه غيره :

" فالله تعالي مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته ، والعبد لا يشركه في شيئ من ذلك ، والعبد أيضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته والله تعالي منزه عن مشاركة العبد في خصائصه، وإذا اتفقنا في مُسَمّي الوجود والعلم والقدرة ، فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان ، والموجود في الأعيان مختص لا اشتراك فيه ، وهذا موضع اضطرب فيه كثير من النُّظَار ، حيث توهموا أن الاتفاق في مُسمَّي هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد ، وطائفة ظَنَّت أن لفظ الوجود يُقال بالاشتراك اللفظي ، وكابروا عقولهم ، فإن هذه الأسماء عامة قابلة للتقسيم ، كما يُقال: الموجود ينقسم إلي واجب وممكن ، وقديم وحادث ومَوْرِد التقسيم – الوجود – مشترك بين الأقسام ،...، وأصل الخطأ والغلط: توهمهم أن هذه الأشياء العامة الكلية يكون مُسَمّاها المطلق الكلي هو بعينه ثابتا في هذا المُعَيَّن وهذا المُعَيَّن ، وليس كذلك ، فإن ما يوجد في الخارج لا يوجد مطلقا كليا ، لا يوجد إلا معينا مختصا ، وهذه الأسماء إذا سُمّي الله بها ، كان مُسَمَّاها مُعَيَّنا مختصا به ، فإذا سمي بها العبد كان مسماها مختصا به ، فوجود الله وحياته لا يُشاركه فيها غيره ، بل وجود هذا الموجود المعين لا يشركه فيه غيره ، فكيف بوجود الخالق؛"[1].

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية/تأليف الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي المتوفي سنة ٧٩٢ هجرية – ٦٤,٦٣/١ – باختصار ، حققه وعلق عليه وخَرَّج أحاديثه وقدم له : الدكتور/عبد الله بن عبد المحسن التركي – شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة بدون .

يُستخلص من هذا النص أنه من غير الممكن أن يوجد خارج الذهن موجود مطلق يحوي كل الموجودات بداخله ، فالمعني الكلي أو الموجود المطلق لا يوجد إلا كافتراض داخل الذهن بينما خارج الذهن فلابد من التعيين والتشخيص ، فالموجود في الأعيان مختص لا يشركه شيئ في وجوده، فوجود زيد مثلا مختص به لا يشاركه فيه شخص آخر وكذلك الحال في كل موجود متعين ، ومن باب أولي أن يكون وجود الله تعالي مختص به لا يشاركه فيه غيره ، ومن ثم فاعتبار الموجودات كلها مشاركة لله تعالي في خصائصه وأحواله متوحدة معه في كلٍ واحد أمرباطل عقلا مما يترتب عليه بطلان القول بوحدة الوجود .

ويقول الشيخ علي بن سلطان القاري :" هذا وقد ثبت بضرورة العقل وأدلة النقل وجود موجودَيْن أحدهما واجب والآخر ممكن أحدهما قديم والآخر حادث ... أحدهما خالق والآخر مخلوق وهما متفقان في كون كل منهما شيئا موجودا ثابتا إلا أن من المعلوم أن أحدهما ليس مماثلا للآخر في حقيقته إذ لو كان كذلك لتماثلا فيما يجب ويجوز ويمتنع ، وأحدهما يجب قدمه وهو موجود بنفسه والآخر لا يجوز قدمه ولا هو موجود إلا بغيره فلو تماثلا لزم أن يكون كل منهما واجب القدم ليس بواجب القدم موجود بنفسه غير موجود بنفسه خالقا ليس بخالق فيلزم اجتماع الضدين علي تقدير تماثلهما فعُلم أن تماثلهما منتف بصرح العقل كما هو منتف بنصوص النقل فعُلم بهذه الأدلة اتفاقهما من وجه واختلافهما من وجه فمن نفي ما اتفقا فيه كان معطلا قائلا بالباطل ، وأما من جعلهما متحدَيْن فكفر صريح ليس تحته طائل . وتحقيق ذلك أنهما وإن اتفقا في مُسَمَّي ما اتفقا فيه – الوجود – فالله تعالي مختص بوجوده وعلمه وقدرته وسائر صفاته ، والعبد لا يشاركه في شئ من ذلك ، والعبد أيضا مختص بوجوده وعلمه وقدرته ، والله تعالي منزه عن مشاركة العبد في خصائصه ، وإذا اتفقا في مسمي الوجود والعلم والقدره فهذا المشترك مطلق كلي يوجد في الأذهان لا في الأعيان ، والوجود في الأعيان لا اشتراك فيه ، وهذا موضع اضطرب فيه

كثير من الحكماء حيث تَوَهَّموا أن الاتفاق في مسمَّي هذه الأشياء يوجب أن يكون الوجود الذي للرب كالوجود الذي للعبد "[١]

والذي يُستخلص من هذه النصوص أن الاشتراك بين الله تعالي وبين الموجودات يكون في مسمَّي الوجود فقط ليس في حقيقته وذلك لأن وجود الله تعالي من ذاته ليس من غير ، بينما وجود الكائنات إنما هو من الغير الذي هو الله تعالي ، كما أن وجود الله تعالي قديم لم يُسْبق بعدم ، بخلاف الكائنات من إنسان وحيوان وغير ذلك فإنها حادثة مسبوقة بعدم ، فالقول بالتماثل بين الله تعالي وبين الخلق يستلزم الجمع بين الواجب والممكن ، وبين القديم والحادث ، وهذا أمر ظاهر الاستحالة لما يترتب عليه من الجمع بين المتناقضين ، كما أن العالم الخارجي لا يُتصور فيه وجود كائن مطلق تتداخل فيه كل الكائنات علي اختلافها لما يترتب علي ذلك من أن يكون الإنسان الواحد موجودا في أكثر من مكان وهذا محال عقلا، وأن الكلي من الأمور التي توجد في الذهن فقط ، وليس كل ما يفترضه الذهن يكون صحيحا ، فالقول بموجود مطلق يستلزم اجتماع القديم والحادث ، كما يستلزم أن تكون الكائنات موجودة في كل مكان علي معني أن يشغل الكائن الواحد أحيازا متعددة وهذا محال عقلا فما أدي إليه وهو وحدة الوجود شديد الاستحالة .

(١) انظر كتاب الرد علي القائلين وحدة الوجود/ علي بن سلطان القاري – ٤١,٤٠ – باختصار ، دراسة وتحقيق: علي رضا بن عبد الله بن علي رضا ، الناشر: دار المأمون للتراث دمشق – سوريا

الخاتمة:

وفي نهاية هذا البحث أرجو أن أكون قد وُفِقت في تناول قضاياه وشرح مسائله ، فما وفقت فيه فبفضل الله تعالى وتسديده ، وما جانبني فيه الصواب فأرجوا قبول اعتذاري فيه . وقد انتهى هذا البحث إلى عدد من النتائج أهمها:

_ أن مفهوم وحدة الوجود عند معتقديها في الديانات الوثنية القديمة أن الله تعالى والعالم شيء واحد، فالله عندهم هو الموجود حقيقة ، أما الكائنات فوهم وخيال، ومظهر لوجود الله تعالى.

_ أن عقيدة وحدة الوجود لها أصول وثنية في الديانة الهندوسية من ديانات الهند، كما نشأت في الديانة الطاوية من ديانات الصين ، وكذلك نشأت هذه العقيدة في بلاد اليونان ، وتجلت مظاهرها في الفلسفة اليونانية.

_أن فلسفة الوحدة عند سبينوزا لا تختلف عن عقيدة النيرفانا لدي الهندوس.

_ أن سبينوزا لم يكن مبدعا في قوله بوحدة الوجود، فلم يكن سابقا في هذا المجال وإنما تأثر بمن سبقوه إلي القول بوحدة الوجود.

_أن فلسفة الوحدة عند سبينوزا لها تداعيات خطيرة علي الدين كإنكار أن يكون الله تعالي خالقا للعالم.

_لفلسفة وحدة الوجود كذلك آثار خطيرة علي الأخلاق حيث لزم عنها أن يكون الإنسان مجبورا في أفعاله.

_ يترتب علي القول بوحدة الوجود اجتماع القديم والحادث وهذا محال عقلا.

_ الاعتقاد بوحدة الوجود يستلزم تأليه الكائنات جميعا .

_ من الأمور الخطيرة المترتبة علي القول بوحدة الوجود تكذيب القرآن الكريم والأنبياء عليهم السلام.

_ يترتب علي القول بوحدة الوجود كذلك عبثية التكليف واعتبار الله تعالي ظالما للعباد تعالي الله عما يقول الظالمون.

فهرس المصادر والمراجع

١- أديان الهند الكبري / الدكتور أحمد شلبي- الناشر: مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلي . القاهرة .

٢- الأديان في الصين / يانغ جي . ترجمة : تشنغ بوه رونغ ، الناشر: دار النشر الصينية عبر القارات – مكتبة المهتدين الإسلامية.

٣- الأعلام / خير الدين الزركلي . الناشر: دار العلم للملايين- بيروت – لبنان .

٤- البيان في مقارنة الأديان / الدكتور أسعد السحمراني ، الناشر : دار النفائس – بيروت – لبنان.

٥- تاريخ الفلسفة اليونانية/ وولتر ستيس، الناشر: دار الثقافة للنشر والتوزيع- القاهرة .

٦- خريف الفكر اليوناني / الدكتور عبد الرحمن بدوي . الناشر: مكتبة النهضة المصرية –شارع عدلي باشا- القاهرة ، الطبعة الرابعة.

٧- الطريق إلى الفضيلة / لوتسو ، ترجمة / علاء الديب ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب .

٨- فصول في أديان الهند / الدكتور محمد ضياء الأعظمي –الناشر: دار البخاري للنشر والتوزيع ، المدينة المنورة .

٩- الفلسفة في الهند / الدكتور علي زيعور – الناشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر بيروت – لبنان.

١٠- كتاب التاو / لاوتسه تشوانغ تسه ، ترجمة ودراسة : هادي العلوي، الناشر: دار الكنوز الأدبية – بيروت . لبنان .

١١- مختار الصحاح / زين الدين أبو عبد الله الرازي ، الناشر : المكتبة العصرية ـــ بيروت . صيدا .

١٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير / أحمد بن محمد بن علي الفيومي الناشر: المكتبة العلمية – بيروت .
١٣- المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة / دكتور عبد المنعم الحنفي. الناشر: مكتبة مدبولي-٦ ميدان طلعت حرب- القاهرة .
١٤- المعجم الفلسفي / الدكتور جميل صليبا – الناشر: دار الكتاب اللبناني- بيروت لبنان .
١٥- المعجم الفلسفي / مراد وهبة ، الناشر: دار قباء ، القاهرة.
١٦- معجم اللغة العربية المعاصرة / د أحمد مختار عبد الحميد عمر .الناشر: عالم الكتب .
١٧- معجم مقاييس اللغة / أحمد بن فارس القزويني الرازي ، الناشر : دار الفكر .
١٨- موسوعة الأديان والمعتقدات القديمة / للدكتور سعدون محمود السماك – الناشر: دار المناهج للنشر والتوزيع ، عمان الأردن ، شارع الملك حسين .
١٩- الموسوعة المفصلة في الفرق والأديان والحركات القديمة والمعاصرة / مكتب التبيان للدراسات العربية ، الناشر : دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع – مصر.
٢٠- النهاية في غريب الحديث والأثر / لابن الأثير -الناشر: المكتبة العلمية – بيروت
٢١- دروس في الفلسفة / للأستاذ يوسف كرم ، و د. إبراهيم مدكور، الناشر: عالم الأدب للترجمة والنشر ، الطبعة الأولي : ٢٠١٦م .
٢٢- موسوعة أعلام الفلسفة العرب والأجانب/ إعداد الأستاذ روني إيلي ألفا مراجعة: د. جورج نخل ، قدم له: الرئيس شارل حلو ، الناشر:

دار الكتب العلمية بيروت – لبنان ، الطبعة الأولي: ١٤١٢ ÷ – ١٩٩٢ م .

٢٣- تاريخ الفلسفة / فريدريك كوبلستون ، ترجمة وتعليق: سعيد توفيق ومحمود سيد أحمد ، مراجعة وتقديم: د.إمام عبد الفتاح إمام ، الناشر: المركز القومي للترجمة ، الطبعة :الأولي ٢٠١٣ م.

٢٤- علم الأخلاق/باروخ سبينوزا ترجمة: جلال الدين سعيد ، مراجعة: د. جورج كتورة ،الناشر: المنظمة العربية للترجمة ، بناية "بيت النهضة" ، شارع البصرة – الحمراء – بيروت لبنان ، الطبعة: الأولي تشرين الأول (أكتوبر) ٢٠٠٩ م.

٢٦-انظر تاريخ الفلسفة الغربية/ برتراند رسل ، ترجمة: د. محمد فتحي الشنيطي ، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٧ م .

٢٧-كتاب اسبينوزا / للدكتور فؤاد زكريا، الناشر: التنوير للطباعة والنشر والتوزيع – لبنان – بيروت ، الطبعة: الثانية ٢٠١٤م

٢٨-ر وحدة الوجود لدي اسبينوزا – ميتافيزيقا اللاميتافيزيقا / للباحث التونسي قاسم شعيب ، الناشر: مؤسسة مؤمنون بلا حدود – ٢٩ ديسمبر ٢٠١٥م

٢٩-تاريخ الفلسفة الحديثة/ يوسف كرم – باختصار ، الناشر: مؤسسة هنداوي – يورك هاوس المملكة المتحدة – ٢٠١٢ م .

٣٠-اسبينوزا والاسبينوزية /تأليف بيار فرانسوا مورو ، ترجمة: د. جورج كتورة ، الناشر: دار الكتاب الجديد المتحدة – بيروت لبنان ، الطبعة: الأولي ٢٠٠٨م.

٣١-مدخل إلي الفلسفة/ جون لويس ، ترجمة: أنور عبد الملك ، الناشر: دار الحقيقة للطباعة والنشر – بيروت ، الطبعة: الثالثة ١٩٧٨ م .

٣٣-انظر فلسفة الدين عند سبينوزا في ضوء المنهج الديكارتي/ إعداد الدكتور غيضان السيد علي مدرس الفلسفة الحديثة بكلية الآداب – جامعة بني سويف – مجلة كلية الآداب – جامعة المنصورة العدد الواحد والستون – أغسطس ٢٠١٧ .

٣٤-انظر شرح العقيدة الطحاوية/تأليف الإمام القاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي المتوفي سنة ٧٩٢ هجرية ، حققه وعلق عليه وخَرَّج أحاديثه وقدم له : الدكتور/عبد الله بن عبد المحسن التركي – شعيب الأرنؤوط ، الناشر: مؤسسة الرسالة بدون .

References :

1- adyan alhnd alkbry / aldktor a7md shlby- alnashr: mktba alnhda almsrya 9 shar3 3dly - al8ahra .
2- aladyan fy alsyn / yangh gy - trgma : tshngh boh rongh ،alnashr: dar alnshr alsynya 3br al8arat – mktba almhtdyn al eslamya.
3- ala3lam / 5yr aldyn alzrkly . alnashr: dar al3lm llmlayyn- byrot – lbnan .
4- albyan fy m8arna aladyan / aldktor as3d als7mrany ، alnashr : dar alnfa2s - byrot – lbnan.
5- tary5 alflsfa alyonanya/woltr stys ،alnashr: dar alth8afa llnshrwaltozy3- al8ahra .
6- 5ryf alfkr alyonany / aldktor 3bd alr7mn bdoy - alnashr: mktba alnhda almsrya –shar3 3dly basha- al8ahra ،al6b3a alrab3a.
7- al6ry8 ely alfdyla / lotso ،trgma / 3la2 aldyb ، alnashr: alhy2a almsrya al3ama llktab .
8- fsol fy adyan alhnd / aldktor m7md dya2 ala3zmy - alnashr: dar alb5ary llnshrwaltozy3 ، almdyna almnora .
9- alflsfa fy alhnd / aldktor 3ly zy3or - alnashr: m2ssa 3z aldyn ll6ba3awalnshr byrot – lbnan.
10- ktab altao / laotsh tshoangh tsh ،trgmawdrasa : hady al3loy, alnashr: dar alknoz aladbya - byrot . lbnan .
11- m5tar als7a7 / zyn aldyn abo 3bd allh alrazy ،alnashr : almktba al3srya — byrot . syda .
12- almsba7 almnyr fy ghryb alshr7 alkbyr / a7md bn m7md bn 3ly alfyomy alnashr: almktba al3lmya – byrot .
13- alm3gm alshaml lms6l7at alflsfa / dktor 3bd almn3m al7nfy. alnashr: mktba mdboly-6 mydan 6l3t 7rb- al8ahra .
14- alm3gm alflsfy / aldktor gmyl slyba - alnashr: dar alktab allbnany- byrot lbnan .

15- alm3gm alflsfy / mradwhba ،alnashr: dar 8ba2 ، al8ahra.
16- m3gm allgha al3rbya alm3asra / d a7md m5tar 3bd al7myd 3mr .alnashr: 3alm alktb .
17- m3gm m8ayys allgha / a7md bn fars al8zoyny alrazy ،alnashr : dar alfkr .
18- moso3a aladyanwalm3t8dat al8dyma / lldktor s3don m7mod alsmak - alnashr: dar almnahg llnshrwaltozy3 ، 3man alardn ،shar3 almlk 7syn .
19- almoso3a almfsla fy alfr8waladyanwal7rkat al8dymawalm3asra / mktb altbyan lldrasat al3rbya ، alnashr : dar abn algozy llnshrwaltozy3 – msr.
20- alnhaya fy ghryb al7dythwalathr / labn alathyr - alnashr: almktba al3lmya – byrot
21- dros fy alflsfa / llastaz yosf krm ,w d. ebrahym mdkor, alnashr: 3alm aladb lltrgmawalnshr , al6b3a alaoly : 2016m .
22- moso3a a3lam alflsfa al3rbwalaganb/ e3dad alastaz rony eyly alfa mrag3a: d. gorg n5l , 8dm lh: alr2ys sharl 7lo , alnashr: dar alktb al3lmya byrot – lbnan , al6b3a alaoly: 1412 ÷ - 1992 m .
23- tary5 alflsfa / frydryk koblston , trgmawt3ly8: s3yd tofy8wm7mod syd a7md , mrag3awt8dym: d. emam 3bd alfta7 emam , alnashr: almrkz al8omy lltrgma , al6b3a :alaoly 2013 m.
24- 3lm ala5la8/baro5 sbynoza trgma: glal aldyn s3yd , mrag3a:
d. gorg ktora ,alnashr: almnzma al3rbya lltrgma , bnaya "byt alnhda" , shar3 albsra – al7mra2 – byrot lbnan , al6b3a: alaoly tshryn alaol (aktobr) 2009 m.
26-anzr tary5 alflsfa alghrbya/ brtrand rsl , trgma: d. m7md ft7y alshny6y , alnashr: alhy2a almsrya al3ama llktab 1977 m .

27-ktab asbynoza / lldktor f2ad zkrya, alnashr: altnoyr ll6ba3awalnshrwaltozy3 – lbnan – byrot , al6b3a: althanya 2014m

28-rw7da alogod ldy asbynoza – mytafyzy8a allamytafyzy8a / llba7th altonsy 8asm sh3yb , alnashr: m2ssa m2mnon bla 7dod – 29 dysmbr 2015m

29-tary5 alflsfa al7dytha/ yosf krm – ba5tsar , alnashr: m2ssa hndaoy – york haos almmlka almt7da – 2012 m .

30-asbynozawalasbynozya /talyf byar fransoa moro , trgma: d. gorg ktora , alnashr: dar alktab algdyd almt7da – byrot lbnan , al6b3a: alaoly 2008m.

31-md5l ely alflsfa/ gon loys , trgma: anor 3bd almlk , alnashr: dar al78y8a ll6ba3awalnshr – byrot , al6b3a: althaltha 1978 m .

33-anzr flsfa aldyn 3nd sbynoza fy do2 almnhg aldykarty/ e3dad aldktor ghydan alsyd 3ly mdrs alflsfa al7dytha bklya aladab – gam3a bny soyf - mgla klya aladab – gam3a almnsora al3dd aloa7dwalston – aghs6s 2017 .

34-anzr shr7 al38yda al67aoya/talyf al emam al8ady 3ly bn 3ly bn m7md bn aby al3z aldmsh8y almtofy sna 792 hgrya , 788hw3l8 3lyhw5órŏóg a7adythhw8dm lh : aldktor/3bd allh bn 3bd alm7sn altrky – sh3yb alarn2o6 , alnashr: m2ssa alrsala bdon .